غرفة الرعب

مغامرات أرسين لوبين

غرفة الرعب

الكاتب الفرنسي المعروف
موريس لبلان

ترجمة
يوسف أبو الحجاج

رصاصة في الليل

تبدأ حوادث هذه القصة في الريف الإنجليزي، وفي ليلة من هذه الليالي ذات الطابع الإنجليزي الخـاص... من حيث كثافة الضباب، وبرودة الجو، وزئير الرياح، وتتابع المطر.

ولم تكن المنطقة التي تقع فيها حوادث هذه القصة بعيدة عن لندن، ولا كانت قريبة منها.

كانت بين بين..... وكانت مليئة بالمستنقعات بعد المطر التي هطل عليها طيلة الأسبوع الماضي، وكانت المنازل فيها قليلة متفرقة، متباعدة بعضها عن بعض.... وقد غشيها جميعاً ظلام دامس، وبرد قارس.

ومن عادة سكان الريف أن يأووا إلى أسرتهم في ساعة مبكرة بسبب انعدام أسباب التسلية والسهر، وبسبب بعد المنازل الواحد عن الآخر، خصوصا إذا كان البرد قارساً، والظلام دامساً، على النحو

الذي وصفناه....

ولكن منزلاً متواضعاً كان يشذ عن هذه القاعدة في هذه الساعة المتأخرة من الليل... و هو منزل لا يختلف كثيراً عن أمثاله من أكواخ هذه المنطقة، إلا أن ضوءاً باهتاً، كان يشع من إحدى نوافذ حجرات الطابق الأسفل منه في مواجهة الطريق....

فلو تطلع أحد المارة في الطريق القريب إلى النور المنبعث من هذه الغرفة، لألفى نفسه أمام رجل طويل القامة، مفتول العضل ثاقب النظرات، تلمع ابتسامة المكر والمرح على شفتيه، وقد انهمك في تنظيف بندقية صيد، على حين رقد كلب صيد إلى جانبه، وبدا كأنه يغط في سبات عميق....

أضاء الحجرة مصباح صغير وضع على المائدة التي كان الرجل جالساً خلفها... فبدت معالم الرجل واضحة جلية للفضولي من رواد الليل... كما بدت معالم الغرفة عنيقة الطراز تزين جدرانها صور زيتية، مما يبعث على الظن بأن صاحبها كهل من رجال الدين، أو أنه عجوز من العوانس، بينما كان شاغل الغرفة في هذه اللحظة عصري المظهر، رائع الشباب، بادى الهزوء والسخرية.

ولكن ملابسه لم تكن بالتأكيد مما يتناسب مع مظهره... كانت

ملابس فلاح من سكان الريف، فسرواله كان قديماً عتيقا، وصدرته الصوفية حال لونها، من الأبيض الصافي إلى لون آخر.... وكان قميصه مفتوحاً، وأن كان رباط رقبته ملفي غير بعيد على المنضدة...

وكف عن العمل لحظة.... فأشعل لفافة راح ينفث دخانها فيختلط بالضباب حتى لا يكادان يفترقان.... وما لبث أن تناول القدح الفارغ ومضى إلى المطبخ ليملأه بالجعة ثانية...

وفي تلك اللحظة هب الكلب من رقاده بغتة وراح ينبح نباحاً عالياً، أتبعه بزمجرة مخيفة... فأسرع الرجل إلى الحجرة حيث وجد الكلب واقفا بجوار النافذة تنثال من فمه الزمجرة المتصلة أشبه بالسباب أو الوعيد... فصاح به في جذل:

– اسكت أيها الوغد...! ماذا دهاك...؟ هل هناك من يقترب من مملكتنا الصغيرة؟ اسكت...! فما أستطيع أن أسمع شيئا وسط هذه الضجة الحمقاء...

وكف الكلب عن الهرير في جهد خارق، وراح ينظر إلى صاحبه بعينين يملؤهما العتاب... غير أنه كان في شاغل عنه، وقد وقف بلا حراك في النافذة وراح يرهف السمع من جديد...

ولكن الصوت لم يتكرر ثانية. وخيل إليه أن الصيحة الثاقبة التي

سمعها لم تكن صيحة استغاثة، بقدر ما تشبه نداء رجل رجلاً آخر ليخبره أنه عثر على شيء ما.. ولكن من ذا الذي يبحث عن شيء في منتصف الليل، وفي طريق يكسوها الضباب السميك؟

وكانت الصيحة قد انبعثت، فيما بدا له، من الطريق ذاتها... وهي لا تبعد بأكثر من عشر خطوات عن بوابة السياج الخارجي للكوخ... فتحول عن النافذة ومضى يحضر قبعته وقد اعتزم أن يتحرى الأمر بنفسه.

وفي تلك اللحظة وقع شيء لم يكن في الحسبان.... وكان وقوعه مفاجئا بحيث ظل لحظة حائراً مبهوتاً يقلب نظراته في أرجاء الحجرة، على حين عقلت الدهشة لسان كلبه عن النباح...

فقد دوى بغتة صوت تحطيم زجاج في عنف وشدة، وتلاه صوت ارتطام شيء صلب بالجدار المقابل للنافذة... فلما أفاق الرجل من دهشته تبين أن قطعة كبيرة من الحجر قد حطمت الزجاج الأعلى ثم ارتطمت بالجدار وسقطت في أرض الحجرة وانقلبت الدهشة غضباً، فمضى إلى النافذة وصاح: أين هذا الوغد الذي فعل ذلك؟

ثم أسرع يجتاز الحديقة إلى الطريق، باحثاً عن الوغد، الذي يقذف بالأحجار بيوت الناس في منتصف الليل، وهو يرجو أن يجده رجلاً قد استبد به الثمل بحيث لا يدرك ما يفعله... ولكنه لم يجد أحداً... وعاد

ينادي من جديد، فلم يجبه غير صدى صوته يتجاوب من بعيد...

ولم يدر أي جهة مضى إليها قاذف الأحجار، فإن الضباب الكثيف جعله لا يرى أبعد من أنفه... فراح يرهف السمع جديداً، وعندئذ أدرك أن كلبه قد تبعه، ولكنه وقف مطأطئ الرأس ساكن الحراك يتشمم الأرض في قوة... فنظر الرجل إلى الأسفل، فرأى أمامه بقعة كبيرة داكنة اللون... فأشعل عوداً من الثقاب، وانحنى يفحص تلك البقعة، وما لبث أن أطلق صفيراً خافتا من بين شفتيه...

كانت البقعة لا تزال دافئة لزجة... كما كانت قانية اللون، بحيث لا يخطئ أحد معرفة كنهها... كانت بقعة كبيرة من الدماء!

وشد الرجل قامته وأشعل لفاقة جديدة... وبدا له ذلك السر عجيبا يثير الدهشة... فالدماء حديثه العهد، ما في ذلك شك ولا ريب... ومن المحقق أن الرجل الذي قذف النافذة بالحجر هو الذي نزفها.... ولكن لماذا بحث الشيطان لم يلجأ إلى الكوخ- سواء أكان ثملاً أم لا- ليطلب النجدة والعناية؟.... لماذا قذف الحجر وانفتل هاربا؟....

وبدأ كلب الصيد يزمجر فجأة، وما لبث صاحبه أن سمع صوت محرك سيارة ينبعث من بعيد خافتاً، ثم يزداد صوته اقتراباً في بطء شديد.

فأسرع الرجل إلى الحديقة، وأوصد باب السياج ثم ارتكز عليه بمرفقيه ووقف ينتظر، وقد أدرك بغريزته أن لتلك السيارة التي تشق طريقها وسط الضباب علاقة وثيقة بذلك المجهول الذي قذف النافذة بقطعة الحجر، ثم اختفى في أحشاء الليل البهيم فجأة كما ظهر فجأة...

وبدا مصباح السيارة خلال الضباب، وما لبثت أن وقفت أمام البوابة دفعة واحدة. وسمع الرجل أصواتاً تعلو على صوت المحرك، ثم سمع صوت فتح باب السيارة وغلقه، ووقع أقدام تقترب من البوابة.

وكان القادم على وشك أن يضع يده فوق السياج عندما رأى وهج لفافة على قيد أصبع من وجهه، فتراجع إلى الخلف مذعوراً.....

وعندئذ ابتدره صاحبنا قائلاً بلهجته المرحة:

– طابت ليلتك!... هل يمكنني أن أسدي إليك خدمة ما؟.... وجذب أنفاس لفافته في قوة حتى ازداد توهجها... وعندئذ لمح وجه ذلك الطارق الليلي... كان وجهاً ينطق كل ما فيه بأن صاحبه من العنصر الجرماني، حتى قبل أن يغمغم الرجل بالألمانية قائلاً: (طاب مساؤك) وقد أذهلته المفاجأة عن التحدث بالإنجليزية... ولكنه ما لبث أن قال: ألم تر رجلاً يسير في هذا الطريق؟...

وقبل أن يسمع جوابا، كان باب السيارة يفتح ويغلق من جديد،

ووقع الأقدام يقترب من البوابة من جديد... ولكن القادم هذه المرة كان يحمل مصباحا كهربائيا في يده، ألقى بضوئه فوق وجه نزيل الكوخ، ثم هبط به حتى قدميه، متمهلاً لحظة عند اليدين الملوثتين بالزيت، والبنطلون القديم القذر...

وقال القادم في اقتضاب: هل أنت هنا منذ زمن طويل يا صاحبي؟.

وابتسم الرجل في الظلام، فقد خدع القادم من مظهره، وظنه من العمال... وما لبث أن أجاب بلهجة أهل الشمال:

– لماذا؟.... في موسم الكريز القادم أتم ثلاثين عاماً هنا...

– لست أعني ذلك. هل كنت تقف بجوار السياج منذ زمن طويل؟

ثم تحول وألقى أمراً سريعاً على الألماني الذي كان يقف بجواره، فمضى هذا نحو السيارة حيث أوقف المحرك، على حين كان صاحبنا يجيبه: ربما منذ خمس دقائق... وربما أكثر من ذلك... لماذا تسأل؟....

– هل رأيت رجلاً يمضي في هذا الطريق؟...

– أجل... جافير شيبشانك العجوز.... وكان ثملاً يترنح، وذلك حوالي السابعة...

فصر الآخر على أسنانه غيظاً، وقال:

– لست أعني ذلك. ولكن منذ برهة. في هذه الدقائق الأخيرة؟....

– كلا... لم أر أحداً.... ولكن أي رجل تعني؟....

وفجأة انبعثت صيحة دهشة من الطريق، تلاها صوت الألماني هاتفاً: أميل!... تعال حالاً... وهات مصباحك...

وألقى نزيل الكوخ بلفافته تحت قدمه، ووقف ينتظر وهو يعجب فيما سوف يحدث بعد ذلك. فإن الرجل الذي دعا أميل كان وقتئذ يفحص بقعة الدماء التي بدت له جليًا في ضوء مصباحي السيارة... ولم تمض لحظة حتى عاد أميل إلى البوابة، وقال في هدوء:

– أصغ إلى أيها الرجل... هل هذا كوخك؟...

– إنه كوخ أبي....

– وأين هو؟....

– لقد ذهب اليوم إلى نوروبش....

– إذن فأنت بمفردك الليلة؟....

– تماماً... يا مستر....

وعندئذ قال أميل في شيء يشوبه الوعيد:

– هل أنت واثق من ذلك تماماً؟....

- طبعا.....

وومض المصباح الكهربائي مرة أخرى... فرأى على ضوئه مسدساً كبيراً مصوباً نحوه، على حين قال الآخر:

- تعال إلى الداخل... هيا سريعاً فإني في عجلة...

فلما احتوتهما الردهة استطرد الطارق قائلاً:

- ماذا صنعت بالرجل الذي جاء إلى هنا منذ قليل؟

- لقد أخبرتك بأنني لم أر أحداً قط... ولعل من الأفضل أن تلقي بهذه اللعبة جانباً فربما انطلق الرصاص من تلقاء نفسه... وياله من حادث عجيب، في منزل المرء نفسه!....

وجلس نزيل الكوخ في مقعد كبير بجوار الموقد، وراح يربت على رأس الكلب، ولكنه كان في الواقع يحاول أن يخفي رباط رقبته الموضع على المنضدة بجانبه، إذ لم يكن من المستساغ أن يكون من النوع الفاخر، وعليه اسم أحد متاجر لندن الشهيرة، بينما يبدو هو في زي العمال من أهل الشمال...

وبدا له ذلك الرجل المسمى أميل أجنبيًّا، وإن كانت لهجته الإنجليزية لا تشوبها شائبة... كما أن ثيابه كانت بالغة الأناقة، وفي أصبع يده اليسرى خاتم ثمين ترصعه ماسة زرقاء نفيسة...

ونجح في إخفاء رباط الرقبة في جيب بنطلونه، فاستوى قائماً، وواجه الغريب قائلاً:

– أصغ إلي يا مستر... لقد سئمت حماقتك، وهاك المنزل كله ففتشه إذا شئت، ثم أرحني من وجهك الكئيب...

ولكن أميل لم يعره التفاتاً.... وهوت يده بالمسدس إلى جانبه... كان وقتئذ يحملق في النافذة المكسورة، وفي قطعة الحجر الملقاة في وسط الحجرة.... وما لبث أن قال في بطء:

– متى حدث هذا؟....

– وما شأنك به أنت؟.....

فصاح به ملوحا بالمسدس: صه أيها الأحمق!....

ثم انحنى فالتقط الحجر، وراح يفحصه ويزنه بيده... وعندئذ تحول إلى الآخر وراح يتفرس فيه بعينين سوداوين عميقتين وقال:

– متى حدث ذلك؟.... ومن الذي ألقى بهذا الحجر على النافذة؟

– لعنة الله علي إن كنت أعرف شيئاً عنه يا مستر..

– ولكن متى حدث؟....

فتردد الرجل لحظة يسيرة، ولكنه عول على أن يقول الحقيقة، فقد

يساعده ذلك على إلقاء ضوء على ذلك السر الذي كان يزداد كثافة لحظة بعد أخرى:

– منذ عشر دقائق.... وهذا هو الذي جعلني أخرج إلى السياج... فحدجه أميل بنظرة قاسية، وقال:

– هكذا؟.... وهل لم تجد الرجل الذي قذف بالحجر؟....

– كلا....

– ألم يكلمك أو يناديك؟....

– كلا....

– وماذا فعلت بعد ذلك؟....

– التقطت قبعتي وخرجت إلى الحديقة ومعي الكلب....

– ولكنك لم تر له أثراً؟....

– أبداً....

ومضى أميل إلى النافذة وهتف يدعو رفيقة، ثم انتحيا ركناً وراحا يتحدثان طويلاً في صوت خافت بالألمانية، لم يسمع منه نزيل الكوخ إلا هذه العبارات (ريفي غبي) و(نضيع وقتنا)، وكان من الجلى أنه استطاع أن يضللهما فاعتقدا أنه من عمال الشمال... ولكنه كان بعيداً

كل البعد عن معرفة حقيقتهما... وأخيراً سمع أحدهما يقول: (الأفضل أن نتحقق من الأمر).... ترى ما الذي يبغيان التحقق منه؟

ولم يطل تساؤله، فقد مضى الآخر يفتش حجرات المنزل واحدة بعد الأخرى، وما لبث أن عاد فقال لأميل:

- لم أجد شيئاً...

فأمره أن يفتش الرجل نفسه، ولكن هذا تراجع خطوة إلى الخلف وهو يصيح:

- ماذا تريد أن تفعل؟... وبأي حق؟...

- ارفع يديك....

وكان الأمر حاسما مقتضبا.... كما أن فوهة المسدس المصوبة إلى رأسه حسمت كل معارضة من جانبه: فأطاع صاغراً حانقا... لا لأن في جيوبه شيئاً مريباً- عدا رابطة الرقبة اللعينة- بل لأن هذين الرجلين قد مضيا شأواً بعيداً في عدوانهما.... ومن الجلى أنهما يبحثان عن شيء معين... فما هو؟. وما الذي يمكن أن يتوقعا العثور عليه في جيب عامل غبي، كما يعتقدان؟....

وأخيراً انتهى التفتيش.... وكان رابطة الرقبة قد ألقيت في غير عناية فوق المائدة عندما أخرجها الرجل من حيبه.... ولكنهما لم ينتبها

إلى اسم المتجر المنقوش عليها... وعادا يتهامسان طويلاً مرة أخرى، ولكن حديثهما كان من الخفوت بحيث لم يتبين الرجل كلمة واحدة منه.

وأخيراً بدا الاقتناع في وجه أميل، وأومأ برأسه مرة أو اثنتين، فعاد رفيقه إلى السيارة وأدار المحرك، على حين أخرج أميل حافظة نقوده وهو يقول: هل يمكنك أن تطبق شفتيك يا صاحبي؟...

وأخرج ورقتين من ذات الجنيه، فأجاب الآخر:

– إذا كان الأمر كذلك يا مستر.... فلن يعلم أحد شيئاً...

– لقد فر أحد المجانين من مستشفى خاص.... وهو الذي قذف نافذتك بالحجر.... ولذلك فإننا نبحث عنه، ولكننا لا نحب أن يعرف أحد عن الأمر شيئاً... وهاك ما يكفي لإصلاح زجاجك....

ووضع الجنيهين على الخوان... فنظر إليهما الآخر في نهم وجذل، بينما استطرد أميل:

– وسوف أعود من هذه الطريق بعد يومين أو ثلاثة... وسأتحرى الأمر... فإذا وجدت أن أحداً لا يعلم شيئاً مما حدث، فلك ثلاثة جنيهات أخرى... أما إذا وجدت القوم على علم به، فعندئذ... كان الله في عونك!... هل تفهميني جيداً....؟

ونطق بهذه العبارة في هدوء عجيب جعل الآخر يتفرس فيه

متعجباً، وقد أيقن أن أمامه أفعوانا ناعم الملمس شديد الخطر... السيارة من جديد، فتمهل في سيره، وراح يحاذر في تقدمه ويلتصق بالأعشاب النامية على حافة الطريق، حتى لمح خلال الضباب الخفيف الضوء الأحمر الذي يشع من مؤخر السيارة كما سمع أصواتا مختلفة تتحدث في انفعال.....

وراح يتقدم في حذر وخفة... ولكنه لم يكد يدنو من السيارة حتى أطلق لها سائقها العنان فمضت تشق الظلام ثانية، وعاد السكون يشمل المكان من جديد...

وأخذ الرجل يتفحص الطريق وهو يعجب ما الذي وجده الرجلان في تلك البقعة بالذات وأطلقا الرصاص عليه؟.... أهو الرجل الذي يبحثان عنه؟... الرجل الذي يرجح أن يكون هو الذي قذف نافذته بالحجر؟....

وعندئذ جاءه الجواب سريعا... فعند حافة الطريق كانت بركة من الدماء الدافئة.. فغمغم قائلاً:

– لقد نزف المسكين معظم دمه... ولكن أين هو؟....

وراح يبحث حواليه على ضوء أعواد الثقاب، دون أن يجد شيئاً... فرجح أن يكون الرجلان قد حملا ضحيتهما إلى السيارة معهما.. واعتزم أن

يعاود الكرة في الصباح بحثاً عن الآثار التي يمكن أن تكون في الطريق.

وعاد إلى كوخه وهو يضع يديه في جيبي بنطلونه.... وكان يمعن التفكير في الأمر ويقلبه على مختلف وجوهه دون أن يجد له تفسيراً. فلماذا لم يلجأ الجريح إلى الكوخ مباشرة بدلاً من أن يقذفه بالحجر، ثم يمعن في فراره أكثر من ربع ميل وهو يعلم أن هناك من يطارده؟.... وإذا كان لم يلجأ إلى الكوخ لعلمه أنهما سوف يفتشانه فلماذا قذفه بالحجر؟.... وما غرضه من ذلك؟....

واجتاز السياج ثانية ثم مضى إلى باب الكوخ... وعندئذ وقف جامداً مكانه، وقد ضاقت عيناه... فإن الأشياء التي كانت فوق المائدة قد حركت من مواضعها... والبندقية نفسها لم تكن حيث وضعها... فمضي إلى المائدة في سكون، ففتح درجها، فوجد الدليل الحاسم على صدق شكوكه... كان بالدرج بعض الأوراق الخاصة، فألفاها مفضوضة وقد نحيت جانباً... إذن فقد كان بالحجرة شخص ما خلال غيابه... ومع ذلك فما زال الجنيهان في موضعهما فوق الخوان... ومعنى ذلك أن الزائر لم يكن من اللصوص، وإنما هو شخص ترك في ذلك الموضع ليراقب الكوخ، فانتهز فرصة خروج صاحبه ليفتشه من جديد... ولكن أين ذهب الرجل بعد ذلك؟...

وخرج إلى الحديقة من جديد، ثم نادى كلبه قائلاً::

– ابحث عنه يا جيري... ابحث عنه وهاته....

وتطورت الحوادث سريعاً... فقد انقض الكلب على خميلة للزهور في ركن الحديقة.... ودوت صيحة ذعر مروعة... تبعها صوت أقدام تعدو في سرعة كان الشيطان في أعقابها... وما لبث الكلب أن عاد منكس الرأس، يعرج على أرجل ثلاث، وبين أسنانه قطعة من بنطلون فريسته الذي افلت منه....

وعاد الرجل وكلبه إلى الحجرة بعد أن أوصد الباب في إحكام ثم وقف بجوار النافذة يحاول أن يخترق الظلام بنظراته النفاذة....وفي الوقت نفسه كان يعبث باستخراج قطع الزجاج من النافذة، عندما لمست يده فجأة قطعة من الورق.

كانت ممزقة كثيرة الثنايا.... ولكن الكلمات التي سطرت عليها في لون أحمر قان... كانت لا تزال مقروءة. وكانت كثيرة الغموض... بحيث ظل لحظة طويلة يتأملها وقد استغرق في التفكير... وإلا فما معنى هذه الكلمات: (ماري جان... عاجل..... جسر. ج. ج. ا. ٥).

وما من شك في أن هذه الورقة كانت ملفوفة حول قطعة الحجر التي قذفت بها النافذة... وقد وضح ذلك السر الذي ظنه من فعل

معتوه أو سكير... وما من ريب كذلك في أن هذه القصاصة هي ما كان الرجلان يبحثان عنه في ا لكوخ وفي جيوبه.. ولكن أحداً منهما لم يخطر بباله، أن يبحث عنها في مصراع النافذة إذ انفلتت من الحجر واشتبكت بشظايا الزجاج..

وثنى الرجل الورقة في عناية ثم وضعها في جيبه وهو ما يزال ممعناً في التفكير... ولو هيئ للسيد أميل أن يرى النظرة التي ارتسمت في عيني نزيل الكوخ، وهو يطفئ المصباح ويمضي إلى فراشه، لأقض مضجعه السهاد في ليلته هذه، ولأدرك أي بلاء سوف يلقاه من ذلك الذي خاله عاملاً ريفياً غبياً!...

ذلك أن هذا العامل الريفي الغبي لم يكن غير أرسين لوبين.... جاء إلى الريف الإنجليزى لقضاء أيام في الصيد والقنص، في كوخ مرضعته فيكتوار، وكان قد ابتاع لها لوبين هذا الكوخ، باسم مسز اسكديل لتقضي فيه بقية أيامها...

وكذلك ما كاد لوبين يصل إلى الريف، حتى لحقته المتاعب، وتبعته المفاجآت والمشاكل، ولو أن حوادث الليلة التي وضفناها وقعت لسواه لأمسك عن الاهتمام بها، ولألقى بها جانباً في صباح اليوم التالي، ولكن لوبين حين أوى إلى فراشه بعد منتصف هذا الليل، كان

قد اعتزم بحث هذه الأسرار التي مرت به في ليلة، ممنياً نفسه بمغامرة جديدة، ومفاجآت مرعبة، لأنه كان من أقصى أمانيه، البحث عن المتاعب، والجري خلف المشاكل والمصاعب..

سر الفتاة مضى (لوبين) ليلة هانئة في هذا الكوخ المنفرد، وفي وسط هذه الليلة المليئة بالأحداث والمفاجآت...

فلما أصح صباح اليوم التالي، غادر سريره ليقوم ببعض الأعمال الرياضية كما كان من عادته أن يفعل في صباح كل يوم....

وبينما هو في شأنه هذا، سمع صليل غطاء الخطابات....

فأطل من النافذة، فشاهد موزع البريد العجوز يحاول أن يضع رسالتين في صندوق البريد الخاص بالكوخ.... ورآه موزع البريد فحياه باحترام وأخبره أن معه خطابين للسيدة أسكديل فطلب منه لوبين أن يضعهما في الصندوق إذ أنها سوف تحضر اليوم من لندن... وكاد الرجل يمضي لشأنه لولا أنه لمح الزجاج المكسور فهتف يقول:

– يا إلهي... لقد كان سليماً بالأمس.

فأجابه لوبين ضاحكاً:

– لقد أصابني عسر هضم خلال الليل ياجو... ولعلك لا تجهل أن أكل الزجاج خير دواء لمثل هذا الداء....

– كذا.... ولكن يخيل الي أن احدى السيارات قد أصابها عسر الهضم أيضاً في هذا الطريق يا سيدي، فلم أر في حياتي بركة من الزيت بهذا الحجم.... إذا أانها تبلغ عشرة أمثال تلك التي أمام البيت.

فاهتم لوبين لهذا الخبر وقال:

– ما الذي تقوله يا جو.... هل وجدت زيتاً أمام البوابة....؟ وأسرع يرتدي ثيابه، ويمضي إلى الخارج، فإذا به يري أن العجوز لم يكن مخدوعاً ولا مسرفاً فيما قاله... فقد كان الزيت يغطي بقعة الدم التي شا هدها عند منتصف الليل...

وحياه موزع البريد وانصرف لشأنه، وترك لوبين يتأمل البقعة التي كان الدم يغطيها ويخفيها... فغمغم يقول لنفسه:

– ان في الأمر لسراً بالتأكيد....

وأسرع يجتاز الطريق إلى موضع البقعة الكبيرة الأخرى التي رآها منذ ساعات على بعد ربع ميل، فوجدها مغطاة بالزيت كذلك... وعندئذ وقف يدخن لفافته مفكراً... فما من ريب أن الزيت لم يوضع فوقها ساعة ذلك الحادث، فهو واثق من ذلك كل الثقة، وما من ريب كذلك في أن شخصاً قد عاد بعد ذلك ليخفي آثار الدماء بهذه الطريقة السخيفة، لأن الزيت لا يسيل من السيارات بمثل هذه الوفرة.. كما أنه

زيت جديد وليس من الزيت المستعمل الذي يسيل من آلات السيارة..

وعاد إلى الكوخ، فمضى إلى المطبخ ليغلي قدحاً من الشاي... وفيما هو كذلك سمع قرعاً على الباب، تبعها نباح الكلب فصاح:

- ادخل... سوف أحضر حالاً....

وعندئذ سمع صوتاً أشبه بتغريد البلابل يقول:

- ولكن هل الكلب يعض؟.....

فأجفل لوبين، وأسرع إلى الباب الخارجي وهو ينتهر الكلب، وإذا به يرى فتاة في نحو الخامسة والعشرين من العمر، ذات حسن خارق، وفتنة جارفة، ترتدي ثياباً أنيقة... فغمغم قائلاً في عجب:

- معذرة، فقد كنت أتوقع قدوم مرضعتي العجوز... ولذلك أذهلني ظهورك المفاجئ... هل لكى أن تتفضلي بالدخول؟....

وحدقت الفتاة النظر إليه لحظة، فخيل إليه أن في نظراتها لمحة من العجب والدهشة ثم قالت:

- لقد تعطلت سيارتي في الطريق على قيد خطوات من منزلك فهل أجد لديك تليفوناً لأحضر به من يصلحها؟

- أخشى أن تكون آلات التليفون نادرة في هذه المنطقة... ولكني قد

أستطيع اصلاح العطب بنفسي، فإذا عجزت فإن سيارتي سيحضرها أحد العمال إلى هنا بعد قليل... وفي وسعه أن يرى ما يمكن عمله من اجلك... هيا بنا نراها أولاً.....

وترددت الفتاة لحظة خاطفة، وما لبثت أن سارت معه نحو سيارة صغيرة ذات مقعدين كانت تقف في جانب من الطريق على قيد مائة ياردة من الكوخ... وفي أثناء ذلك قالت:

– إذن فلديك سيارة؟. لقد حسبت ذلك أندر من آلات التليفون هنا.

– ذلك بالنسبة للسكان الأصليين. أما أنا فلست إلا من الزائرين...

فعادت تحدق النظر إليه وقد بدت الحيرة في أساريرها، وقالت:

– لست أفهم تماما.... فأين تقيم عادة؟....

– في لندن. حيث أرجو أن يتاح لي أن أجدد هذا التعارف.

– ولماذا بحق السماء أتيت إلى مثل هذا المكان؟....

– للاستمتاع بمثل هذه المفاجأة... إذ أن المرء لا يتوقع أن يجد حسناء مثلك على عتبة الباب في الصباح مع زجاجة اللبن والصحف!....

وعلى رغم الابتسامة الشاحبة التي لا حت على شفتي الفتاة، فإن علائم الحيرة لم تفارق أساريرها، وهي تمضي قائلة:

– إنك شخص عجيب!.... ولكن متى جئت إلى هنا؟...

– منذ يومين فقط... والآن دعينا نرى ما أصاب سيارتك...

وتقدم يفتح غطاء السيارة، فما كاد يفعل حتى سمع أنة خافتة، فالتفت إلى الخلف حيث رأى الفتاة قد أغمضت عينيها وتشبثت بباب السيارة لتتقي السقوط... فأسرع نحوها يسألها عما أصابها، فغمغمت في همس ضعيف:

– هل لك أن تحضر لى قدحاً من الماء... إنني أشعر بدوار شديد.

– بلا ريب... اصعدي إلى السيارة ريثما احضر الماء...

وعاد بعد لحظة يحمل قدح الماء، فوجدها قد انتعشت قليلاً، وهي تبتدره قائلة: معذرة لما سببته لك من عناء. ولكني لم أتناول أي شيء من الطعام.

– يا إلهي! هذا مرض يجب أن نعالجه في الحال... هيا بنا إلى الكوخ..

وعادا أدراجهما معاً، فاستطرد يسألها:

– إلى أين كنت ذاهبة في هذه الساعة المبكرة دون إفطار؟

– إلى قصر خالي القريب من كمبردج... فقد أرادني على التبكير في الذهاب لأشترك في مباراة للتنس يقيمها بعد ظهر اليوم... ولكن

يا إلهي!... ما الذي أصاب النافذة؟.... انني لم أنتبه إليها إلا الآن...

– لقد أراد أحد السكارى أن يداعبني فقذفني بحجر... ولست أدري ما سوف تقوله مرضعتي حين تراها...

– أتتوقع قدومها وشيكاً؟...

– في أية لحظة من الآن...

وصب الشاي في قدحين وضعهما على المائدة، ثم مضى إلى المبطخ ليحضر البيض، وهو يصيح بها في جذل: ضعي بعض اللبن في قدحي أيتها الحورية.. وقطعتين... من السكر....

ولم يطل تمهله أثناء العبارة الأخيرة إلا جزءاً من الثانية... ولم يطل أيضاً وقوفه جامداً بلاحراك إلا هذا الجزء من الثانية.... ولكن عينيه ظلتا معلقتين بالمرآة الموضوعة فوق المغسلة، والتي كان يرى فيها صورة الفتاة وهي تجلس إلى المائدة... فقد رآها تضع في قدحه مسحوقاً ليس من اللبن أو السكر في شيء...

ومضى يثرثر في القول وهو يجلس أمامها، ولكن عقله كان يعمل في سرعة وتفكير... فهو يعلم أن عينيه لم تخدعاه، ومن ثم كانت المفاجأة شديدة الوقع في نفسه، فما خطر بباله قط أن تكون الفتاة شيئاً آخر غير الذي يدل عليه مظهرها... أما الآن فقد تغيرت نظرته إلى الأمر...

وإذا كان ذلك المسحوق الذي رآها تضعه في قدحه مادة مخدرة، ولا ريب أنه كذلك، فلا ريب كذلك أن الفتاة ليست إلا من أفراد عصابة الليلة الماضية... ومن ثم بدا له سبب ا لحيرة التي تملكتها، جلياً واضحا... فقد كانت تتوقع أن ترى أمامها (عاملاً غبياً) ولكنها وجدته هو!....

وهو يعلم تماماً أنها لم ترتب في رؤيته لها وهي تدس المخدر... فمن المحتم والأمر كذلك أن تظل على هذا الجهل... وفي الوسع تدبير امر الشاي في يسر وسهولة... وما هي إلا أن سقطت السكين من يده وهو يقطع الخبز، وانحنى ليلتقطها، حتى صدم مرفقه قدح الشاي فأراقه على المائدة وعلى بنطلونه.. فنهض يعتذر قائلاً:

– يالي من أحمق...! ولكن يا إلهي.... إن الشاي شديد الحرارة....!

واستأذنها أن يذهب لاستبدال ثيابه فقالت: بلا ريب... ولكن يا مسكين أنت!.... لا ريب إن الشاي قد أحرق جلدك!.

وكانت أساريرها تنطق بالعطف والشفقة لما أصابه... فلم تختلج عيناها أسفاً على فشل خطتها... وكان لوبين يفكر أثناء استبدال ثيابه فيما عسى أن تكون خطوتها التالية... ولا ريب أنها كانت تريد من تخديره أن تقوم بتفتيش الكوخ بحثاً عن تلك الرسالة التي بلغ من

أهميتها أنهم يلجأون إلى مثل هذه الأساليب في محاولة العثور عليها...

وعندئذ لم ير خيراً من إعدام هذه الرسالة، بعد أن ينقش كلماتها في ذاكرته... فأخرجها من بطانة قبعته، وراح يتأملها في إمعان، ثم أشعل ثقاباً أحرقها به حتى صارت رماداً ذره في الهواء...

وما كاد يعود ويجلس قبالتها حتى سمع دوي العجلات في الطريق، وإن هي إلا لحظة حتى كانت مسز أسكديل تقف بالباب فاغرة فاهها وهي تتأمل الزجاج المحطم... فصاح بها لوبين مرحاً:

- إنه أحد السكارى يا أمـاه... وقد اقتضيته جنيهين ثمناً للزجاج.... وهذه سيدة جميلة أصاب سيارتها العطب أمام الكوخ فدعوتها لنشاطرني طعام الإفطار.

فقالت الفتاة: من حسن الحظ أنها تعطلت هنا. فلست أدري ما عساه كان يصيبني لو لم أجد هذا الشاي اللذيذ. وهذا الكوخ الجميل...

فنظرت إليها العجوز في ريبة فهي تعرف لوبين حق المعرفة، وتعرف أن وجود فتاة جميلة معه مما يريب حقاً...

ومع ذلك فلم تمض ساعة حتى كانت الفتاة قد أخذت بمجامع قلبها... حتى إذا ما حضر العامل بسيارة لوبين كانت العجوز شديدة الأسف على فراقها...

وكان لوبين قد عجز عن إصلاح السيارة بعد محاولة طويلة... فطلب إلى العامل أن يفحصها وصحبه إليها، فما كاد الرجل يمضي في فحصه قليلا حتى تبدت الدهشة في وجهه ونظر إلى لوبين قائلاً:

– أتقول يا سيدي إنها كانت تسير جيداً ثم تعطلت فجأة؟...

– هذا ما تقوله السيدة...

– ولكن ذلك أعجب شيء رأيته... ولا أدري بحق الشيطان كيف يمكن أن يحدث.. أترى هذا الشيء الذي أمسكه بين أصابعي؟.... انه مجمع الأسلاك التي تتم به الدورة الكهربائية؟ وما لم يكن نظيفاً جافاً فلا يمكن للسيارة أن تتحرك أصبعاً واحداً... وها أنت تراه غارقاً في الزيت، فكيف أتاه الزيت بالله عليك؟...

– ربما كانت إحدى الأنابيب قد رشحت...

– محال أن يحدث ذلك في هذا الموضع، إذ لا توجد أنبوبة للزيت بالقرب منه... فإذا كانت السيارة قد سارت جيداً– كما تقول السيدة فلا ريب أن الأسلاك كانت جافة نظيفة.... فكيف أتاها الزيت إذن؟... لابد أنه لم يأت من تلقاء نفسه!...

وأضاءت هذه العبارة السبيل أمام لوبين، فارتسمت الابتسامة على شفتيه وهو يرقب الفتاة تداعب الكلب أمام الكوخ... ثم سأل

العامل: كم من الوقت يستغرقه إصلاح العطب؟

فأجابه إن ذلك سوف يطول زهاء ساعتين.... وكانت الفتاة قد بدأت تسير نحوهما، فأسرع يقول للعامل في هدوء: اصغ إلي، وسوف أجزل لك العطاء. قل إنك لم تعرف سبب العطب.

واستطرد يصيح بالفتاة وهي تدنو: إن الخبير قد فشل في فحصه حتى الآن....

– رباه!... ماذا عساي فاعلة الآن؟.... لا ريب إن خالي المسكين سوف يقلق كثيرا...

فضحك لوبين وقال: لن يحدث ذلك وأنا هنا... ما قولك في أن تصحبيني في سيارتي فأذهب بك إلى قصر خالك في طريقي إلى لندن؟

فنظرت اليه الفتاة في ريبة، على حين قطب الميكانيكي حاجبيه بعد أن خيل اليه أنه قد فهم سر هذه اللعبة... ثم غمغمت:

– لم أكن أود أن أسبب لك هذا العناء، فإن المنزل بعيد عن طريقك....

– لا عليك، فما زال الوقت مبكراً. ولكن إلى أين يذهب الرجل بسيارتك بعد إصلاحها؟.... إلى منزل خالك؟....

فترددت لحظة، وقالت: لعل الأفضل أن يأخذها إلى جراج (كانابي) في كمبردج... هل تعرفه؟..

- نعم أيتها الآنسة...

فالتفتت إلى لوبين قائلة:

- ان خالي يتعامل مع هذا الجراج منذ عهد قريب، ومن الصعب أن أصف للرجل موضع القصر... ولذلك فضلت أن يأخذها إلى الجراج.. وسأتصل بهم تلفونياً ليدفعوا له ما يطلبه...

فلمس العامل قبعته وهو يومئ موافقاً. ثم ظل يرقب الاثنين وهما يعودان إلى الكوخ، دون أن يفارقه ذلك القطوب، خصوصاً عندما عاد لوبين وحده ومنحه جنيهاً، وهو يأمره بأن يأخذ السيارة إلى الجراج دون أن يقول لأحد شيئاً عن سبب العطب... ولكن الذي زاد من حيرة الرجل إنما كان معنى تلك البرقية التي كلفه بإرسالها إذا لم يقابله في الجراج حتى الظهر، والتي كان نصها: (روجر، نادي سنيور الرياضي، لندن... البهو، العنكبوت، كمبردج... أرلو...).

كان شديد الابتهاج من صحبة الفتاة، لا لحسنها الرائع وفتنتها الجارفة فحسب، ولكن لما تتيحه له رفقتها من التغلغل إلى أعماق السر الذي يشغله.. وكان يعجب أشد العجب مما يدعو مثل مس فينابلز-

كما عرف اسمها- إلى الاندماج في عصابة أميل وأعوانه.

وكان يفكر في ذلك في الفترة التي قضاها في السيارة بمفرده في إحدى القرى، عندما سألته الفتاة أن يقف ريثما تتصل بعمها تلفونياً لتنبئه بتأخرها، بينما الواقع أنها كانت تريد تحذيره... وكان من الجلي أيضا أنها وضعت الزيت في محرك السيارة لتعطلها عندما افتعلت الاغماء ومضى ليحضر لها كوب الماء. وقد فعلت ذلك عندما تبينت فداحة الخطأ الذي وقع فيه أميل وشركاه عندما حسبوه عاملاً ريفياً غبياً، فكان هذا العمل من جانبها دليلاً على حدة ذكائها وسرعة خاطرها... ولم يكن غرضها من كل ذلك إلا وضع المخدر في شرابه ثم تفتيش الكوخ... ولكنه لم يتبين جلياً سبب رغبتها في أن يقابل خالها... ومن جديد راح يعجب إن كان هذا الحديث التلفوني الذي طال مداه.. لا يرمي إلى إعداد استقبال حافل له، من طراز لقاء أميل له...

وكان مبتهجاً إذ لم تعرف الفتاة أنه خدعها... وما من ريب أنها كانت ترتاب فيه ، لمجرد ادعائه ليلة الأمس أنه من العمال، ولكذبه في الحديث عن النافذة المحطمة.

وعادت بعد برهة، فاعتذرت له عن غيابها طويلاً، بأن خالها في ضيق شديد...

ثم أضافت: لست أحب أن أضايقك كثيراً يا مستر أرلو. ولكن هل لك أن تأخذني إلى قرية نوروتش؟... سوف أبحث عن شيء هناك ولن أعوقك أكثر من دقيقة.

وكان لوبين قد انتحل أمامها اسماً مستعاراً ليس سوى المقطعين الأولين من اسمه الحقيقي.. فأجاب:

– بلا ريب يا عزيزتي.... فلست في عجلة من أمري، ولا يزال اليوم في أوله...

ورمقها بركن عينيه... فوجدها تجلس ساهمة تحدق النظر إلى الأمام وقد بدت في أساريرها علائم التفكير العميق... وظلت كذلك دون ان يتبادلا كلمة واحدة، حتى بلغ نورتش حيث قالت عندما وقفت بهما السيارة بجوار الكنيسة:

– هل لك أن تنتظرني هنا؟... سوف لا أغيب كثيراً...

وكان من السخف أن يتبعها ويقتفي أثرها في وضح النهار وفي بلدة صغيرة كهذه، فإنه لا يريد أن يثير في نفسها الشكوك من ناحيته... ولكنه كان يعجب مما دعاها إلى تغيير خطو سيرها على هذا النحو.

ولم تغب الفتاة دقيقة كما زعمت، وإنما طال غيابها حتى بلغ العشرين دقيقة... وكان يبدو في محياها وهي قادمة نحوه أن مهمتها لم

تلق نجاحاً، إذ زاد قطوبها وشرود ذهنها... وصعدت إلى السيارة دون أن تفوه بكلمة واحدة، فسألها:

– هل نذهب إلى كمبردج، أم لا يزال لديك ما تفعلينه هنا؟..

– كلا شكراً.. لقد وجدت ما أردت أن أعرفه.....

– أخشى أن تكون النتيجة غير مرضية؟

– انها كذلك حقاً، ولست أدري كيف أبلغ الأمر إلى خالي... فقال في هدوء ورفق:

– اصغي الي يا مس فينابلز... انني لا أريد أن أبدو متطفلاً أو أزج فيما ليس من شأني... ولكن ألا يمكن أن أقوم بأية خدمة لك؟....

وظلت برهة لا تحير جوابا... ثم بدا أنها قد أعملت فكرها فقالت فجأة: مستر أرلو... ألم تسمع شيئا عن جمعية المفتاح الفضي؟

– إنها المرة الأولى... ولكن الاسم يبدو لي رقيقاً.

– إن هذه الرقة لا تعدو الاسم فقط.... ولكنها أشد الجمعيات السرية خطراً في أوروبا هذه الأيام...

– من يعش ير... ولكن ما علاقة هؤلاء الناس بحياتك الشابة؟...

– لا شيء يختص بي، ولكن بخالي...

- أهو أجنبي؟

- يالله!... إنه إنجليزي مثلك ومثلي...

وران عليهما الصمت بعد ذلك، بينما كان لوبين يفكر فيما سمعه... وبدا له أنه إذا أراد المزيد من المعلومات فعليه أن يشير إلى زواره الليليين، فقال:

- من العجيب أن نتحدث عن الأجانب بعد أن تلقيت زيارة اثنين منهم في الليلة الماضية... كانا من الألمان.

فصاحت في دهشة مفتعلة جعلت لوبين يعجب برقة تمثيلها:

- ماذا؟... أنت؟... ترى ما الذي كانا يبغيانه منك؟...

- لعمري لست أدري يا مس فينابلز... فقد كانا يتحدثان طويلاً دون أن أفقه ما يريدان... كما أن أحدهما يدعى أميل...

- أميل؟... ترى هل يضع في أصبعه خاتما ذا ماسة زرقاء...؟

- إنه الوغد نفسه... هل تعرفينه...؟

فتمهلت الفتاة قبل أن تجيب:

- مستر أرلو... إنه أحد زعماء جمعية المفتاح الفضي...

- أهوه كذلك حقاً؟... لقد اعتقد بالأمس أنني مزارع بسيط

ساذج، فتركته يعتقد ما يشاء... وكان وصوله بعد زمن وجيز من مرور ذلك السكير الذي قلت لك أنه قذف نافذتي بالحجر.... ومن عجب أن السيد أميل كان شديد الاهتمام بهذا الحادث وبالحجز ذاته...

– ولماذا هذا الاهتمام البالغ منه؟....

– إن لبعض الناس هوايات غريبة يا مس فينابلز... وهذا الرجل كان شديد الضيق والانفعال، وراح يلوح أمامي بمدفع صغير... وفي رأيي أن الذي أثار انفعاله هي تلك البقعة من الدماء التي كانت أمام الباب.

فأجفلت الفتاة وقالت: بقعة من الدماء؟ ولكن هل أصيب أحد؟.

– هذا مما لا ريب فيه، فإن الدماء لا تنبت وحدها في الأرض كالعشب.

– ألم تحاول معرفة ما حدث؟...

– لقد كان الضباب يا عزيزتي كثيفاً بحيث لا يرى الإنسان يده إذا مد ذراعه أمامه... كما أن المستر أميل كان يثير اهتمامي إذ كان يظن أنني أخفي رجلاً في الكوخ.

– هل تعني أنه كان يطارد شخصاً ما؟...

– هذا ما لاح لي....

فقالت الفتاة بعد لحظة: لقد فهمت...

– يسرني ذلك، لأنني في الواقع لم أفهم شيئاً... فهل لك أن تزيدي الأمر وضوحاً؟....

فترددت الفتاة ثانية، وظلت صامتة برهة طويلة، قبل أن تجيب.

– هل تعلم من الذي ذهبت لأراه في نوروتش؟... إنه الرجل الذي سالت دماؤه في الطريق... الرجل الذي كانوا يطاردونه..

– وهل رأيته؟...

– كلا... فقد أخبرتني مديرة منزله أن رجلين من الأجانب حضرا لزيارته في ساعة متأخرة من الليل فصحبهما إلى الخارج ولم يعد... ولا ريب أنه فر منهما خلال الطريق في الضباب وعندئذ حضرا إليك للبحث عنه... رباه!... ان ذلك سوف يحطم خالي جون تماما...

فحدق لوبين النظر إليها وقال: ولماذا يصيب ذلك خالك جون؟

– لأنه ابنه... فهذا الرجل هو هارولد ابن خالي...

فصفر لوبين بشفتيه، ثم قال في دهشة:

– ولماذا بحق السماء يطارد السيد أميل وعصابته هارولد هذا؟

– مستر أرلــو... إنني سوف أوليك ثقتي فأشرح لك الأمر بحذافيره... ولا أعلم إن كنت مصيبة في ذلك أم مخطئة، ولكني هذا

الأمر قد ضعضع أعصابي... وما دامت الظروف قد زجت بك في هذه الحوادث في مصادفة عجيبة، فلتكن على علم بحقيقة الأمر... فقد ذهب هارولد منذ ثلاثة أعوام إلى المانيا...

– لحظة واحدة يا مس فبنابلز. أي نوع من الرجال هارولد هذا؟...

– هو شاب رقيق المعشر، ولكنه ضعيف الإرادة، فقد نشأ مدللاً إذ ماتت أمه عند ولادته، فأفسده خالي وأساء تنشئته....

حسناً... لقد ذهب إلى المانيا منذ ثلاثة أعوام، للنزهة، إذ أنه يجيد كثيراً من اللغات.. وهناك اتصل بطريقة أو أخرى بذلك الشيطان أميل وجمعية المفتاح الفضي... وليس عجيباً أن يحدث ذلك... إذ أن للجمعية فروعاً في جميع الأقطار الأوروبية وفي انجلترا نفسها... وكان ينظر إلى الأمر في مبدئه كمجرد ملهاة يتسلى بها، ولكنه عندما تبين خطر هذه الجمعية، كان قد فات أوان النكوص... ولم أكن أعرف شيئا عن هذا الأمر، كما لم يعلم به خالي، إذ لم نتبينه إلا مؤخراً، عندما رأيته كثير الوجوم على غير عادته... وأخيراً استطعت أن أنتزع السر منه، فإذا بالجمعية تشدد الضغط عليه ليمدها ببعض المعلومات السرية الخطيرة.. وقد نسيت أن أخبرك أن هارولد يعمل في وزارة الخارجية، ولذلك تتاح له الفرصة كثيراً لمعرفة بعض الأسرار الهامة والاطلاع على

الوثائق السرية... وكنت مع خالي منذ أسبوعين عندما حضر هارولد في حالة يرثى لها.. كان شديد الثمل على غير عادته... واستطعنا بشق النفس أن نعلم منه أن هؤلاء الأوغاد بعد أن كانوا يهددونه بالخطابات من المانيا، قد حضروا إلى إنجلترا وراحوا يهددونه شخصيا، إذ كانوا يريدون صورة من وثيقة شديدة الخطورة...

– ولماذا لم يذهب إلى البوليس؟....

– هذا ما قاله له خالي، وعندئذ علمنا الحقيقة المروعة... علمنا أن هارولد قد انزلق في هوة الخيانة، وأمد هذه الجمعية ببعض المعلومات التي أؤتمن عليها... ولديهم رسائل منه تثبت عليه الجريمة، يكفي أن يبرزوها حتى يقضوا عليه... وكان الأوغاد يعرفون ذلك فاستخدموا هذا السلاح في سبيل إرغامه على الإفضاء إليهم بمعلومات أخرى ذات أهمية حيوية بعد إفشاؤها خيانة وطنية عظمى... ومن ثم شعر هارولد بخطورة موقفه، فإذا امتنع عن طاعتهم كان معنى ذلك الموت، وإذا انساق إلى تنفيذ رغباتهم كان ذلك العار كله، ولذلك سلك الطريق الوحيد المفتوح أمامه، وهو الفرار من وجهم، فحصل على إجازة طويلة وغادر منزل أبيه ومضى يختفي في نوروتش... ولكنهم عثروا عليه هناك...

– وكيف عرفت بما حدث ليلة أمس يا مس فبنابلز؟

– لقد أخبرني خالي به عندما اتصلت به تليفونيا، فإن مدبرة منزل هارولد تحدثت إليه في الصباح، وأخبرته بأن هارولد غادر المنزل مع اثنين من الأجانب ولم يعد... وأنت تعرف البقية...

وكانت الفتاة تتنهد وهي تفرك منديلها في عصبية بين كفيها وما لبث لوبين أن غمغم:

– إنني آسف لما أصابكما أيتها الآنسة، وأرجو أن تنكشف هذه الغمة قريبا.

– لقد كان ينبغي أن أكتم الأمر... ولكنني توسمت فيك ما يجعل المرء يثق بك ويأنس إليك.

– شكراً لهذا الشعور الرقيق...ولكن الذي لا أفهمه بعد هو ما الذي حدا بابن خالك هارولد إلى قذف نافذتي بالحجر؟.

– لقد فكرت في ذلك يا مستر أرلو... فهلا ترى من المحتمل أن تكون هناك رسالة ما... لف بها قطعة الحجر على أمل أن تصل إليك؟

– يا الهي!... إنها فكرة رائعة يا مس فبنابلز!... الآن فهمت لماذا كانت مستر أميل بالغ الاهتمام بما في جيوبي... ومع ذلك فلم تخطر لي هذه الفكرة ببال!...

واختلس إليها النظر، فوجد جبينها شديد القطوب... ومرة أخرى ازداد إعجابه ببراعة تمثيلها... بيد أنه لم يعرف مبلغ قصة هارولد هذه من الصدق... و لولا أنه رآها بعينيه وهي تدس له المخدر، ولولا أن عامل السيارات أخبره بسبب العطب الذي أصاب سيارتها، لكان من المحتمل أن يصدق كل حرف من هذه القصة، ولو انه صدقها لما كان هناك ما يدعو إلى إخفاء أمر الرسالة عنها...

واشتدت رغبته في استجلاء هذا السر المغلق، كما اشتدت لهفته إلى لقاء الخال العزيز جون... وهذه الفتاة إنجليزية صميمة، فهل خالها كذلك؟... بل هل هو خالها على الإطلاق؟ وما هي حقيقة الصلة بينها وبين ذلك الرجل المسمى أميل؟... وكان يعلم أنهم أصابوا الحدس في وجود رسالة حول قطعة الحجر، ولكنهم راحوا يتخبطون في الظلمات بعد ذلك... فهم لا يعلمون إن كان قد وجد الرسالة أم لا... وهم في سبيل معرفة ذلك لا يترددون البتة في انتهاج كل الوسائل مهما بلغت من العنف...

وأخيراً استطرد قائلاً:

– ولكني لم أر أثراً لأية ورقة في الحجر... ومن المحقق أن الحجر لم يكن ملفوفا بشيء... غير أنه من المحتمل أن تكون قد سقطت في

الحديقة، إلا إذا كانت الرياح قد حملتها بعيداً... ولماذا بالله لم تفكري بهذا الأمر قبل ذلك يا مس فينابلز؟... فلعلنا كنا نجدها لو بحثنا عنها... ولكن ماذا يمكن أن يكتبه ابن خالك في هذه الرسالة مما قد يفيده في شيء؟

فأخلدت الفتاة إلى التفكير برهة ثم قالت:

– لعله عرف المكان الذي يقودونه إليه يا مستر أرلو فكتب اسمه، وقذف به على أول نافذة مضيئة لقيها لمجرد الاستغاثة وطلب النجدة..

فنظر إليها لوبين في إعجاب، وهتف:

– لعمري إن العمل معك لذيذ يا مس فينابلز... فهذه فكرة لم تخطر لي على بال فط...

ولكننا إذا أردنا أن ننقذه فينبغي أن نعرف المكان الذي اقتادوه اليه في أسرع وقت مستطاع... لأن خالي لا يريد إبلاغ الأمر لرجال البوليس.

– ما رأيك في أن نرسل برقية إلى مسز أسكديل لتبحث عن قصاصة من الورق في الحديقة وتبرق بمحتوياتها... إن وجدتها إلينا؟....

فصاحت الفتاة: لا بأس في ذلك يا مستر أرلو... إنه رأي رائع..

– سوف نقف عند أول مكتب للبريد ونبعث إليها بهذه البرقية... ولكن أين ترين أن ترسل الإجابة؟.... الأفضل ان نرسلها إلى خالك، فما هو عنوانه...

– ان قصره يدعى (هارتلي كورث)... يكفي أن تذكر اسم المكان لتصل إليه...

– وما اسم خالك؟...

– مستر مريديت...

– حسناً... سوف لا تتأخر مسز أسكديل عن الرد، فهي رقيقة الشعور جداً.

وغادر لوبين السيارة عند أول مكتب للبريد حيث راح يكتب برقية طويلة قدمها للموظف وأجزل له العطاء وأوصاه بكتمان ما جاء بها... ثم عاد ليخبر مس فينابلز بإتمام مهمته... وما لبثا أن درجت بهما السيارة حثيثا في طريقها إلى كمبردج.

الجريمة

لو كان لوبين ممن يضربون بالبخت ويعلمون الغيب . . . لعرف أنه كان يعقد اجتماع هذه اللحظة في قصر (هارتلى كورث) حيث يقيم الخال ا لمحترم جون . .

ففي إحدى حجرات الطابق الأعلى، كان رجل أشيب الشعر في الخامسة والخمسين من عمره، يجلس إلى مائدة عريضة، وأمامه ذلك الألماني أميل... الذي كان يقول في خشونة:

– لشد ما تثيرني هذه المفاجآت... فهل أفهم منك أن ذلك العامل الريفي قادم بسيارته الآن مع دوريس؟

فأجابه الرجل الأشيب: وهل تظن عاملا ريفيا يملك سيارة من طراز (رولس رويس)...؟ لقد استطاع بالتأكيد أن يضحك على ذقنك يا صديقي... فهو سيد يدعى المستر أرلو... أما لماذا أنكر شخصيته

وادعى بأنه عامل فهذا مالا أفهمه...

– وماذا كان يفعل في الكوخ إذن؟

– لقد ذهب إليه للصيد والقنص... لشد ما أخشى أن يكون صاحبنا الآخر على صلة به، وكان يعرف إلى أين تأخذانه...

– لقد كان الضباب كثيفاً يا مريديت... ثم إنه كان بين الحياة والموت...

– ولكن لابد أن هناك رسالة مع الحجر... فما كان ليحطم النافذة لمجرد التسلية...

فقال أميل: ولكننا لم نجد شيئاً، وكذلك لم تنجح (دوريس) في العثور على أثر لهذه الرسالة. ولا تنس يا (مريديت) أن كل ما يهمنا من أمر هذه الرسالة ألا يعثر عليها أحد... وإلا تعرضنا للخطر كما تعلم.

– إنني ما كنت أبالي بالأمر لو كان الرجل عاملاً ريفيا حقاً. أما وهو غير ذلك فقد تغير وجه المسألة....

فقال الألماني في هدوء:

لقد فتشنا الكوخ جيداً فلم نجد شيئاً وعليك أن تكون الآن أكثر هدوءاً ورباطة جأش... وإذا كان (أرلو) هذا واحداً منهم.... فلم لم

يذهب صاحبنا إليه مباشرة... ولماذا لم يصرخ مستنجداً؟... (كلا يا عزيزي أنت تقلق نفسك لغير ما سبب معقول...).

– ربما كنت على صواب... فلننتظر عودة دوريس....

– ما الذي سنصنعه بالفتاة عندما نفرغ من مهمتنا...).

– ما سنفعله بالآخرين...

– لقد لاحظت أخيراً أنها غدت أشد فضولاً، وتحاول بشتى الوسائل أن تعرف مالا يعرفه إلا أعضاء المجلس الأعلى فقط... وعلى الأخص فيما يتعلق بموضع المركز الرئيسي لنا...

– انه فضول النساء لا أكثر ولا أقل....

– ربما كنت على حق... ومهما يكن من أمر فها هي قد حضرت، ولا بد لي من الاختفاء وعدم الظهور أمام هذا الرجل...

وراحا يرقبان السيارة من النافذة وهي تقف أمام باب القصر، حيث هبطت منها الفتاة، وسرعان ما كانت تلج الحجرة حيث قابلها الرجلان في لهفة وتساؤل... فقالت في هدوء: لقد تحققت أنه لم يجد رسالة ما... ولكن الذي لا أفهمه هو كيف وقعت في هذا الخطأ المزري يا هر فايت؟. لقد كدت أرتبك هذا الصباح عندما رأيته، و اضطررت إلى تعديل خطتي بأكملها للفور...

فقال مريديت: هل كان من الحكمة ان تأتى به إلى هنا؟..

– كان ذلك لازماً، فقد حاولت أولاً أن أدس له المخدر ولكني فشلت... ثم رحت أبحث في الحديقة دون أن أجد شيئاً ولذلك كان ينبغي أن أدبر خطة جديدة لمعرفة ما لديه... والآن اصغ إلي يا مستر مريديب، يجب أن تهبط لمقابلته... فأنت خالي، والأمر كله يتعلق بابنك هارولد الموظف بوزارة الخارجية، والذي اختطفته جمعية المفتاح الفضي... فأجفل أميل وصاح: يا للسماء!.... هل أخبرته بذلك أيضا؟

– بلا شك... ولكنك لا تستطيع أن تفهم لغبائك أن هذا الرجل ليس مزارعا أو عاملاً كما ظننت... فهو رجل مثقف ولن يسكت على ما حدث في الليلة الماضية إلا إذا فعلنا شيئاً يسكته، وما ذلك الشيء إلا أن نثير عطفه وشفقته، وهذا ما فعلته، وهاك ما فعلت...

ثم راحت تقص عليهما ما حدث منذ الصباح، وما قالته للوبين... فلما فرغت من قصتها قال مريديت:

– لعمري يا عزيزتي ما كان يمكن أن تفعلي خيراً من ذلك... واستطردت الفتاة: فإذا لم يصل الرد على برقيته، فمعنى ذلك أنه حتى لو كانت هناك رسالة ما فلا ريب أنها قد فقدت إلى الأبد...

وتمهلت لحظة قبل أن تردف في نبرات جامدة:

– أما إذا كانت هناك رسالة ما، فمن حق المستر أرلو أن نقدم له كأسا من الشراب. وستتوقف طبيعة هذا الشراب على ما في الرسالة..

فابتسم أميل،وربت مريديت على كتف الفتاة مشجعاً، فاستطردت:

– والآن هيا بنا أيها الخال العزيز حتى لا يدهش الرجل من غيبتنا... ولا تنس أنك محطم الفؤاد لما أصاب ابنك الوحيد... وبهذه المناسبة كم تظن يا هرفايت أن سيطول الأمر....؟

– ثلاثة أيام أو أربعة... ولن تزيد عن أسبوع بحال من الأحوال فقد انهارت قواه تقريباً كما علمت هذا الصباح.....

ووجدا لوبين يتظاهر بالنعاس فوق عجلة القيادة، فراح مريديت يشكر له في نبرات حزينة ما فعله من أجل دوريس الصغيرة، ثم استطرد يسأله إن كان له أن يطمع في المزيد من كرمه فيقبل الانتظار حتى يصل رد برقيته. فأسرع لوبين يعرب عن قبوله ذلك عن طيب خاطر.

ولم تمض دقائق حتى صاح لوبين:

– يالله....! لقد جاءت البرقية بأسرع مما قدرت... فها هو الموزع يدنو بدراجته من القصر....

فأسرعت دوريس لاستلام البرقية، وفضها، وعادت إليهما وعلى وجهها علامات الحيرة الشديدة، فصاح مريديت:

– حسنا يا عزيزتي...! ماذا بها...؟

– إنها من مسز أسكديل تماما... ولكن يخيل إلي أنها ليست بذات معنى... فهي تقول إنها وجدت ورقة في الحديقة كتب عليها س.ب.ز... وبضعة حروف أخرى... ويلي ذلك توقيعها...

وكان لوبين يتفرس فيها... فأدرك أن حيرة الفتاة ودهشتها غير مفتعلة... ولكنها ما لبثت أن صاحت في جذل:

– لقد فهمتها أيها الخال العزيز. فإنها مكتوبة بالشفرة التي كان هارولد يستعملها معي عندما كنا أطفالا... وهي لدي في حجرتي.

وانفلتت تعدو إلى حجرتها... فأشعل لوبين لفاقه راح يدخنها في تلذذ ومرح... وما لبثت الفتاة أن عادت هاتفة:

– لقد وجدتها... فهذه الحروف تدل على اسم موضع معين لله ما أبرع هارولد!

فقال لوبين في اهتمام: وما اسم هذا الموضع يا مس فينابلز؟

– كسنجلونذ.... وأظنني سمعت عن بلدة بهذا الاسم...

– أجل وهى تبعد بضعة أميال عن لوستوفت على الساحل. فهل تعتقدين أن معنى هذه الحروف أن ابن خالك قد اقتيد إلى هذه البلدة؟

– وماذا يمكن أن تعني غير ذلك يا مستر أرلو...؟ لا ريب أن هناك بعض الأكشاك البحرية المهجورة وقد سجن في أحدها.

فغمغم مريديت وهو يمر بيده على جبينه: يا بني المسكين ماذا فعل الآن...؟

فتظاهر لوبين بالتفكير لحظة، ثم قال:

– ألا يمكن أن أفيدك في شيء يا مستر مريديت...؟ إنني لا أعرف ابنك، ولكن في وسعي أن أذهب إلى كسنجلاند للتحري عن مصيره... ولا تنس أن ظهور أي أجنبي في تلك البلدة يكون ملحوظاً من سكانها...

فصاحت الفتاة: ولكن يا مستر أرلو.... ليس يصح أن نكبدك هذا العناء... ثم إنك مدعو إلى العشاء في لندن هذه الليلة و....

فقاطعها لوبين في احتجاج:

– لا تقولي ذلك أيتها الآنسة... وفي وسع هذا العشاء أن ينتظر يومين أو ثلاثة، فإن المرء ينبغي أن يضحي بكل شيء في مثل هذه القضية في سبيل مساعدة الملهوفين... وسوف أرحل في الحال إلى كسنجلاند وسأبرق لكم بنتيجة ما يصل إليه بحثي...

فقال مريديت في صوت كسير:

- إنني لا أدري كيف أشكر لك هذا الصنيع يا سيدي... ولو كانت صحتي....

- لا تفكر في شي البتة يا مستر مريديت... فإن مكانك هنا، مع ابنة أختك...

وصحبته الفتاة إلى السيارة وصافحته فضغط على يدها وهو يهمس:

- هل لي أن أحضر لك بنفسي الأنباء السارة يا عزيزتي؟...

- بلا ريب... وإنه لجميل أن تجشم نفسك هذا العناء في سبيل شخصين غريبين...

- غريبين؟... كيف تقولين ذلك يا... يادوريس؟

فلما اختفت السيارة في الطريق الرئيسية تحول مريديت إلى الفتاة هاتفا: ما هذه اللعبة بحق الشيطان؟... وأي شفرة تتحدثين عنها؟

فأجابت الفتاة، وكان الألماني قد انضم إليهما:

- ألا تعرف ما جاء في هذه البرقية؟... إنها وجدت ورقة في الحديقة كتب عليها (س ب ز ا ل ف ت ر ب ت ي. أسكديل). ولا ريب أنها مكتوبة بالشفرة حقا...

- ولكن ماذا؟... لماذا كسنجلاند بالذات.

– آه.. إنك سريع النسيان يا مستر مريديت.. ألم أقل لأرلو إنه إذا كانت هناك رسالة فلا ريب أنها تحمل اسم المكان الذي يأخذون هارولد إليه؟... وعلى ذلك فإن أى مدينة يتركب اسمها من أحد عشر حرفا تفي بالغرض... وقد كنت واثقة أنه سيتطوع بالبحث فاخترت كسنجلاند لأنها لا بالقريبة ولا بالبعيدة وعلى الأقل تبعد عنا يومين أو ثلاثة؟

فغمغم الألماني وهو ينعم النظر في البرقية:

– يا لله يا مريديت!... إن الفتاة شديدة البراعة حقا...

ولكن تر ى ما الذي تدل عليه هذه الحروف تماما!...

فقالت الفتاة: إنني لا أشك البتة في أنها تحمل عنوان مركزكم الرئيسي.

– إذا كان الأمر كذلك حقًّا يا عزيزتي فقد أحسنت بإبعاد هذا الغر إلى كسنجلاند... وفي سكينة تامة راح يمزق البرقية إربا، ثم دس القصاصات في جيبه...

كان لوبين جالسا في بهو فندق العنكبوت ظهر ذلك اليوم عندما وافاه صديقه روجر، فصاح به:

– ما معنى هذه الدعوة العاجلة بالله عليك؟. ولماذا تركت صيد البط وعدت إلى لندن؟. لقد حرمتنى من الغداء مع صديقي ماريوت.....

– لا بأس يا روجر!... فقد كنت هذا الصباح مع ملاك هبط من السماء بين ذراعي، ملاك شديد البراعة وحدة الذكاء..

– أدعوتني لتقول لي ذلك فقط؟... من هذا الرجل؟...

– إنها سيدة يا روجر... بارعة الحسن شديدة الفتنة، ولها خال كهل... وكانت في لهفة شديدة على أن تصلها برقية معينة... ولكني أراك لا تفهم شيئا، فلنبدأ من البداية..

وراح يقص عليه ما حدث منذ منتصف الليلة الماضية... فلما فرغ قال روجر:

– ولكن ما هذه الرسالة الثانية؟.. لقد فهمت أنك أحرقت الأولى التي وجدتها في النافذة، فما هذه الأخرى التي وجدتها مسز اسكديل؟

– إن مسز أسكديل لم تجد شيئا البتة يا روجر!.... وعندما أخبرتك أنني أبرقت إلى مسز اسكديل، لم أضف إلى ذلك أنني أوحيت إلى هذه السيدة الطيبة بنص الرسالة التي تبعث بها... وقد كنت حائراً في اختيار هذه الرسالة. وفجأة قطع نظري في مكتب البريد على صحيفة خاصة بسباق الخيل فأوحت إلي بالفكرة، ومن ثم كانت برقيتي إلى مسز أسكديل (أبرقي إلى مريديت هارتلي كورث كمبردج بما يلي: وجدت ورقة في الحديقة كتب عليها س ب ز ا ل ف ت ر ب ت ي.

أسكديل) وهذه الحروف ليست سوى الرموز الخاصة بالخيل...

– وكيف بحق السماء صنعت الفتاة منها اسم بلدة كسجلاند؟

– لأن مسز دوريس فينابلز كما قلت لك فتاة وافرة الدهاء والفطنة يا بني، وكانت تريد أن تتخلص مني، وتعدني حجر عثرة في سبيلها منذ أن شاءت الصدف أن تضعني في طريقها.

(ولا ريب أنها تعتقد.... أنني قد صدقت تلك الأقصوصة التي ذكرتها لي عن هارولد... وقد كنت متشككا في أمرها حتى جاءت هذه الأكذوبة الضخمة عن الشفرة التي كانت تستعملها مع هارولد، والتي خرجت منها ببلدة كسنجلاند، إذ أن هذه الكلمة مركبة من أحد عشر حرفا مثل حروف الرسالة المزعومة.

– وما هي خطتك الآن؟...

– سوف نذهب بعد الغداء إلى كسنجلاند، حيث لا نعدم أن نجد شخصاً يمكننا أن نعهد إليه ببضع برقيات ليرسلها تباعاً في مواعيد نحددها له، أذكر فيها أنني لا أزال أبحث، ثم إنني اهتديت إلى أثر. وهكذا. ومتى فعلنا ذلك عدنا إلى لندن في المساء. ولعلنا إذا قمنا بتفتيش (هارتلي كورث) تفتيشا دقيقاً أثناء الليل أن نصل إلى شيء ذي بال. فإني أعتقد يا روجر أن الأمر أكثر من أن يكون جريمة عادية لا أهمية لها.

– هل تعني أنها جريمة سياسية؟ تختص بالجاسوسية فعلا؟...

– هذا ما أعتقده... وفي رأيي أن جمعية المفتاح الفضي ذات صلة حقًّا بهذا السر...

– إنني أعرف أحد رجال المخابرات، رونالد ستاندش... فما قولك في أن ندعوه إلى تناول العشاء معنا الليلة؟...

إنها فكرة موفقة، فاذهب واتصل به الآن...

أصاب الصديقان من التوفيق في (كسنجلاند) أكثر مما كانا يحلمان به، إذا التقيا منذ وصولهما برجل يعرفه كلاهما، من أهالى لندن، وكان يقضي في البلدة بضعة أيام لقضاء مهمة تجارية فيها... وسرعان ما رضي بأن يرسل البرقيات التي كتبها له لوبين، ووضع على كل منها الساعة التي ينبغي أن ترسل فيها...

وفي أثناء عودتهما اقترح لوبين أن يعرجا على كوخ مرضعته ليخبرها أنه سوف يتغيب أياما قليلة حتى لا تقلق إذا لم يعد...

فلما أوقف السيارة أمام الكوخ هبط منها قائلاً لصديقه انه سوف يعود في الحال. ثم فتح السياج ومضى يجتاز الحديقة وهو يهتف منادياً العجوز، دون أن يسمع جواباً منها ودون أن يخلف كلبه جيري لاستقباله.

فلما بلغ الكوخ، وقف جامداً لحظة، ثم استدار قائلاً:

- تعال يا روجر...

فأسرع روجر ووقف بجواره، فأدرك السبب الذي جعل الكلب لا يخف لاستقبال سيده... إذا كان جيري المسكين ملقى على الأرض وقد اخترقت رأسه رصاصة قاتلة....

وراح يذرع الحجرة بنظراته، وإذا به يصيح دهشة ثم يمضي إلى المائدة ويلتقط قفازاً موضوعا فوقها... وهو يقول:

- أترى هذا القفاز يا روجر؟... إنه الذي كانت دوريس فينابلز ترتديه هذا الصباح...ترى ما الذي حدث هنا بحق الشيطان؟

- لعلها عادت لتتحقق من صدق البرقية والرسالة...

- ولكن لماذا تقتل جيري؟... ثم أين مربيتي العجوز.

وعندئذ بلغ سمعهما صوت غليظ عال ينبعث من الطابق الأعلى، فأسرعا يرتقيان الدرج حيث وجدا به لدهشتهما، مسز أسكديل مستلقية في فراشها، بثيابها كاملة، وقد راحت في سبات عميق. وكان من الجلي أن العجوز قد أعطيت مخدرا قويًّا فقال لوبين:

يا للأنذال.! سوف يكون لي معهم شأن، أي شأن... ولكن كيف حملت إلى ذلك الطابق....؟ إن الفتاة وحدها لا تستطيع أن تحمل امرأة غائبة عن الصواب فوق هذا الدرج ... ومن الذي قتل الكلب.؟

ولماذا؟... لقد كانت مسز فينابلز تلاعبه هذا الصباح في الحديقة ولا يمكن أن تكون هي التي قتلته...

- هل تظن أنها لم تكن وحدها....؟

- لا ريب أنهم جاءوا جميعا ليروا الرسالة بأعينهم، فحدث ما نراه.

وكان لوبين واقفا بجوار النافذة، فضاقت عيناه فجأة، وراح يحدق النظر إلى نقطة معينة، ثم قال: أترى هذه الخميلة التي على الجانب الآخر من الطريق؟... إن شيئا يتحرك بداخلها يا بيتر، وأراهنك على أنه رجل مختبئ هناك... بل انه رجل حقًّا، فقد رأيت وجهه الآن..

وطلب لوبين إلى صديقه أن يظل بالحجرة ويتظاهر بالتحدث إلى شخص آخر، حتى لا يفطن الجاسوس إلى انفراده بها، ريثما يتسلل لوبين من الباب الخلفي للكوخ، فيباغته ويقبض عليه...

ونجحت الخدعة، فلم تمض بضع دقائق حتى كان لوبين يعود إلى الكوخ وهو يجر الرجل من عنقه، فقابلهما روجر عند الباب، وعجب إذ رأى الرجل غير ما كان يتوقع أن يراه، إذا كانت أناقة ثيابه تنم على أنه ليس من اللصوص أو قطاع الطرق... بل الأعجب من ذلك أنه كان يصخب وينذر لوبين بإبلاغ البوليس عن هذا الاعتداء الشنيع...

فأجابه لوبين: دعك من هذا الهراء وادخل معنا، فإننا نمثل القانون هنا

الآن. واعلم أنه إذا سولت لك نفسك الفرار فسوف أطلق النار عليك.

وكان غطيط مسز أسكديل مسموعا في الكوخ، فرأى لوبين في أسارير الرجل لمحة خاطفة من الارتياح اكتمى وجهه بعدها ذلك القناع الجامد كما كان...

فأشار لوبين إلى جثة الكلب وقال: هل أنت الذي قتلته؟..

- كلا... فإنها المرة الأولى التي ألج فيها باب هذا الكوخ...

- ولماذا كنت مختبأً تراقبه؟...

- لأنني أعتزم شراءه... ولازلت أطلب إيضاحاً عن هذا الاعتداء.

- سوف نقدم لك هذا الإيضاح للتو... وسنرى إذا كنت ستظل مصرًّا على هذا السخف إلى النهاية...

وفي مثل وميض البرق كانت يد لوبين قد ارتفعت ثم هوت على يد الرجل التي أخرجها من جيبه بغتة، فسقط منها خنجر مرهف النصل... وسرعان ما أمسك بالرجل بين يديه الفولاذيتين، وطلب إلى صديقه أن يحضر حبلاً، ثم تعاونا على شد وثاقة جيداً على أحد المقاعد... وأخرج لوبين منديله فكمم به الرجل الذي كان ينظر إليه مشدوها وقد لاح القلق والجذع في عينيه....

فأخرج لوبين بعد ذلك من جيبه أسطوانة قصيرة من المطاط وهو يقول: سوف تطلق هذه العصا السحرية لسانك يا صديقي، متى ذقت طعمها على فخذيك وما عليك إلا أن تشير لي بالكف عندما تنوي أن تتكلم.

وكانت عينا الرجل تدوران في محجريهما في ألم وذهول كلما هوت قطعة المطاط على جسمه، وأخيراً أشار برأسه في قوة، فتوقف لوبين وأشار إلى روجر أن ينزع الكمامة عن فمه قائلاً:

– هل عولت على الكلام أخيراً؟... حسنا.... ولكني أنذرك بأنك إذا كذبت علينا فسوف أذيقك ما لا تنساه في حياتك قط...

فغمغم الرجل في فزع: ما الذي تريد أن تعرفه؟

– ما الذي حدث بعد ظهر اليوم؟... وماذا كانت مس فينابلز تفعل هنا؟ ومن الذي خدر العجوز؟.... ومن الذي قتل الكلب؟

إنني لا أعرف ماذا حدث هنا... وقد كانت هنا إحدى الفتيات، ويحتمل أن يكون اسمها فينابلز، أما سبب حضورها فلا أعرف عنه شيئا... ولكن اثنين منا تلقيا أمراً بأن...

– من الذي أصدر إليكما هذا الأمر؟

فتردد الرجل لحظة ثم قال:

– هل تدعني أذهب إذا أخبرتك بكل ما أعرفه؟

– سوف ننظر في ذلك فيما بعد. من الذي أصدر لكما هذه الأوامر؟

– اننا نعرف اسمه، كما أنني شخصيًّا لم أره قط. وقد اعتاد أن يصدر لنا أوامره تلفونيًّا... وفي هذه المرة أمرنا بأن نذهب إلى فندق في كمبردج وننتظر تعليمات جديدة منه.... وهناك انضم إلينا رجل لم أره من قبل وأحضرنا بالسيارة إلى هنا... وكانت سيارة الفتاة تقف أمام الباب، فمضى رجل إلى الكوخ حيث كانت الفتاة جالسة تتحدث مع العجوز، فما كادت تراه حتى شحب وجهها وتعلقت بذراع العجوز كأنها تستنجد بها.. وفي تلك اللحظة زمجر الكلب، فأطلق عليه الرجل رصاصة صرعته.. وحاولت الفتاة الهرب ولكننا قبضنا عليها بجوار السياج وأعدناها إلى هنا، حيث حقنها الرجل في ذراعها بمادة مخدرة كما فعل بالعجوز، وعندئذ أمرنا بأن نحمل العجوز إلى فراشها والفتاة إلى سيارته وبعد ذلك مضى لشأنه بعد أن أمر زميلي بأن يقود سيارة الفتاة إلى كمبردج، كما أمرني بأن أكمن في الطريق لأراقب الكوخ... هذا كل ما أعرفه...

فأشعل لوبين لفافة، ونظر إلى روجر قائلاً:

– ما رأيك في أكاذيب هذا الوغد يا روجر؟...

– ربما كان صادقاً؟.... ولكن هل من عادتك يا صديقي أن تطيع أوامر زعيم لم تره قط، إذا كان فيها ارتكاب جرائم من هذا القبيل؟..

– إنني شخصياً لم أرتكب شيئاً...

– هل هناك كثير من زملائك في هذه العصابة؟

– نعم...

فقال لوبين فجأة: أهي جمعية المفتاح الفضي؟...

فحق الرجل إليه النظر في دهشة وقال: إنني لا أعرف ماذا تعني...

– إنه بارع في التظاهر بالدهشة يا روجر... إلا إذا كانت قصة المفتاح الفضي من ابتكار مس فينابلز الحسناء.

ثم تحول للرجل واستأنف استجوابه:

– هل يمكنك أن تصف لي الرجل الذي حضرتما معه إلى هنا؟

– انه متوسط القامة، أسود العينين، ذو وجه مكتنز...

– إنها صفات تتفق مع زائري ليلة أمس... والآن ماذا ترى أن نصنع بهذا الوغد يا روجر؟.

فصاح الأسير في قلق: بالله عليكما أيها السيدان لا تسلماني إلى البوليس.. لا خوفا من السجن، ولكن لو أذيع أنني بحت لكما بما

قلت لغدت حياتي لا تساوي قلامة ظفر..

– حسنا... سوف ننظر فيما نفعله بك بعد أن نتحقق من أن مسز أسكديل على ما يرام. تعال معى لنراها يا روجر...

فلما انفردا في غرفة العجوز، استطرد لوبين قائلاً:

– إنني أميل إلى تصديق الرجل يا روجر، فليس في وسعه أن يخترع هذه القصة عفو الخاطر... ولكني لا أفهم سبب قدوم الفتاة إلى هنا، إذ لم يكن ثمة ما يدعوها إلى التحقق من أمر الرسالة...

– سوف نعرف ذلك عندما تفيق مسز أسكديل من أثر المخدر... ولا ريب أن سباتها سوف يطول، وما عليك إلا أن تكتب لها ورقة بأننا سنعود في الصباح، وعليها ألا تتحدث لأي شخص حتى نقابلها...

– إن قلبها على ما يرام، ولا أظنها في خطر ما...

وأخرج لوبين مفكرة من حيبه راح يخط فيها بعض الكلمات، بينما ذهب روجر إلى النافذة وما لبث أن صاح:

– آه!... يبدو أن هذا العملاق في عجلة.. أنظر يا لوبين.. فانضم إليه لوبين، وإذا به يرى رجلاً فارع الطول إلى حد غريب مرتديا حلة سوداء، يحث السير في الطريق من ناحية الكوخ إلى اليسار... وما لبثا أن سمعا دوي محرك سيارة. فقال لوبين: لقد كثرت السيارات هنا

حتى لينبغي أن يضعوا بعض رجال المرور لتنظيم حركتها. حسنا يا روجر. سوف نحمل أسيرنا معنا ونلقي به في الطريق، ففي رأيي أنه لا يعرف أكثر مما قاله. وعليك الآن أن ترغمه على حفر قبر في الحديقة لكلبي ريثما أدثر مربيتي العجوز ببعض الأغطية..

وبينما كان يقوم بهذه الأعمال سمع روجر يصيح في صوت عال:

– لوبين... لوبين... تعال سريعاً..

واندفع لوبين نحو الدرج... ثم إلى البهو... بمثل ومضة البرق الخاطف...

وعندئذ رأى الأسير منكفئاً في مقعده، بحيث لم يكن يمنعه عن السقوط إلا الحبل الموثق به. بينما غاص في قلبه خنجر طويل حتى المقبض.

أسرار الجمعية

وقف لوبين حائراً فاغر الفم من الدهشة، فلم يكن مصرع هذا الرجل في حسابه، كما أنه لم يسمع حركة في الطابق السفلي.

لما كان مع العجوز بالحجرة الأخرى... وأخيراً تمالك نفسه وقال لصديقه: لا بد أن القاتل هو ذلك العملاق الذي رأيناه مسرعا في الطريق لدقائق خلت، ولا بد أنه فاجأه وطعنه قبل أن يفطن القتيل للخطر، ولو فطن لاستغاث ورفع صوته عالياً....

وأسرع إلى المطبخ، فوجد بابه الخلفي مفتوحاً، وآثار أقدام موحلة على عتبته فقال لروجر:

– لا بد أنه كان يقف في هذا المكان، واستمع إلى حديثنا مع القتيل، وما أفضى به القتيل إلينا من الأخبار، ولابد أن أخباره صحيحة ولولا ذلك ما قتلته العصابة، ولكن لماذا يقتلونه بعد أن أفضى إلينا بكل ما

يعرفه... إلا إذا كانوا أرادوا معاقبته على خيانته...

ولاذ (روجر) بالصمت فلم يقل شيئاً، فقد أذهلته الجريمة وروعته.

وتابع لوبين تعليقه قائلاً:

– ولكن الانتقام يفقد روعته إذا قتل الخائن فجأة وغيلة دون أن يعرف سبب موته. كما كان يحسن بالعصابة الانتظار إلى فرصة أخرى فلا يعرضوا أنفسهم لخطر هذه المجازفة ونحن لا نزال في الكوخ...

وصمت لوبين برهة ثم قال:

– إلا إذا كانوا يريدون إرغامنا على إبلاغ الأمر لرجال البوليس.

– ولماذا يريدون ذلك.... وما فائدتهم منه؟

– ليرغمونا على الإفضاء للمسئولين بكل ما نعرفه، ولا بد أنهم عرفوا حقيقة البرقية التي وصلتني من المسز أسكديل، فأيقنوا أنني كنت أغرر بهم... وما دام الأمر كذلك فلا ريب أنني أعرف حقيقة الرسالة وأردت تضليلهم... وقد خيل إليهم أنني ما دمت سأبلغ رجال البوليس نبأ هذه الجريمة، فسأضطر لذكر ما حدث بالأمس والإدلاء بالنص الحقيقي للرسالة السرية... وعندئذ يعرفون ما يسعون لمعرفته عن طريق الصحف.

– أظنهم يقتلون رجلاً في سبيل ذلك...؟

– إذا كان للرسالة أهمية بالغة في نظرهم فلا ريب أنهم يقدمون على ذلك... ولكني سأفسد عليهم غرضهم، وأقول لرجال الشرطة إنني حضرت إلى هنا فوجدت الكلب مقتولاً، ومسز أسكديل فاقدة الرشد، وذلك الرجل موثقاً فوق المقعد والخنجر في صدره...

– وماذا نفعل بمسز أسكديل؟..

– سنأخذها في السيارة إلى مسكني بلندن، ريثما أذهب إلى مركز الشركة القريب من هنا.... ثم ألحق بك في لندن في موعد العشاء.

وأخذ الكونستابل الذي يرأس نقطة البوليس يهز رأسه متعجباً بعد أن فرغ لوبين من حديثه، وما لبث أن غمغم:

– إنها أعجب قصة سمعت بها... هيا بنا يا سيدي.

وصحبهما ثلاثة من الشرطة في السيارة العتيقة، فلم تمض عشرون دقيقة حتى كانت تقف بهم أمام الكوخ... فسار لوبين في المقدمة وما كاد يبلغ باب الردهة حتى وقف بغتة في مكانه مصعوقا...!

كان كل شيء بالكوخ على عهده به، إلا جثة الرجل المطعون بالخنجر! فقد اختفت كأنما بسحر ساحر... وكذلك اختفى قفاز مس فينابلز.

وران الصمت برهة حتى قطعة الكونستابل قائلاً: لست أرى أثراً لجثة ما يا سيدي.. هل أنت واثق أنك تركتها هنا؟

– بلا ريب... وقد رآها صديقي أيضا...

– إنني أصدقك يا سيدي... ولكن ربما غرر ذلك القتيل المزعوم بك... ولا ريب أنه من اللصوص، وهو الذي قتل الكلب وخدر العجوز، فلما شعر بقدو مكما أوثق نفسه حيثما اتفق على أحد المقاعد، ثم دس الخنجر في ثيابه بحيث يبدو غائصا في قلبه.... فلما انصرفتما ركن إلى الفرار.

وأعجب لوبين بحصافة الكونستابل وراقت له هذه الفكرة، لولا أنه يعرف أنها ليست من الحقيقة في شيء... فهو يعلم أن الرجل لم يوثق نفسه على المقعد وأنه لم يكن يحمل خنجرا آخر...

وفي تلك اللحظة وقفت دراجة بخارية أمام الكوخ، وبدا في بابه شاب حديث السن يبدو عليه الخجل و الحياء، فصاح به الكونستابل مداعباً: هاك حادث لصحيفتك أيها الفتى الصحفى.... ويمكنك أن تضع له هذا العنوان: (من الذي قتل كلب الصيد، ولماذا؟....).

واستطرد ممثل القانون بعد ذلك قائلاً للوبين:

– سوف لا أدع هذا الأمر يمر يا سيدي، ولا بد أن أنتقم لكلبك

المسكين هل تريد أن تعود معنا بالسيارة؟...

وكان لوبين يعمل فكره و قتئذ على ضوء ظهور الصحفي الشاب، واستقر عزمه على انتهاز هذه الفرصة، فقال للكونستابل:

– شكراً يا سيدي.. سوف أبقى هنا ريثما أدفن الكلب، ثم أعود مع مستر سمو على دراجته...

ما كاد رجال الشرطة ينصرفون حتى أفضى لوبين للصحفي الناشئ بجانب من حقيقة ما حدث، وكيف استغفل العصابة وبعث إليها برسالة تختلف عن الرسالة الحقيقية، وكيف أنه يريد أن يمعن في استغفالها من جديد... وما لبثا أن أعدا معاً مسودة المقال الذي سينشر بعنوان (أحداث عجيبة في كوخ ريفي.... رسالة من الظلام...).

وقد جاء فيه أن المراسل علم من المستر أرلو المقيم في لندن، والذي يمضي بعض الوقت في صيد البط بكوخ مربيته العجوز أنه حدث في الليلة الماضية بينما كان بمفرده في الكوخ، أن قذفت نافذته بحجر كبير حطم الزجاج، وكان ملفوفا بقطعة من الورق سطرت عليها رسالة غريبة..... وكان الضباب من الكثافة بحيث لم يستطع مستر أرلو البحث عن الرجل الذي ألقى بهذه الرسالة.. فظنها مجرد مزحة من شخص ثمل، إلا أنه عندما عاد للكوخ عصر اليوم وجد كلبه

المدلل مقتولا برصاصة في رأسه، فاتصل برجال الشرطة الذين بدأوا تحرياتهم في الموضوع... ولست في حل الآن من نشر محتويات هذه الرسالة الغريبة...

وأردف لوبين يقول للصحفي:

– سوف يحاول بعض الناس أن يتصلوا بك على أثر نشر هذا المقال ليعرفوا محتويات الرسالة السرية، وما عليك إلا أن تمعن في إيقاظ فضولهم بمحاولتك لكتمان الأمر... وأخيراً تقول لهم فحوى الرسالة كما سأخبرك به، ولكن دعهم يعتقدون أنك علمته من البوليس وليس مني... أما الرسالة المزيفة الجديدة فلتكن (روز ماري ب ج س د ر ر).

– ولكن ما هي الرسالة الأصلية؟...

– سوف تعرفها فيما بعد.... فلا تتعجل الأمور.

وبعد أن قاما معا بدفن الكلب في الحديقة، ركب الفتى دراجته البخارية، وجلس لوبين خلفه... ولكن ما لبث أن جال بنظراته حواليه لحظة ثم قال للصحفي:

– عليك أن تخرج من البوابة في سرعة عظيمة، ثم تتجه إلى اليسار. واذا كنت لا تريد أن تقتل برصاصة في يومك هذا فينبغي أن تنحرف يميناً ويساراً حتى تصل إلى منعطف الطريق.

وفعل الفتى ما أشار به لوبين، فما كادت الدراجة تخرج إلى الطريق، حتى انهال عليهما وابل من الرصاص طاش جميعه دون أن يصيب الهدف.

وكان لوبين قد رأى رجلين يختبئان خلف إحدى الأشجار بالقرب من الكوخ، أحدهما ذلك الرجل الفارع الطول الذي رآه من قبل مع روجر وهو يسرع بالخروج من الكوخ.... بعد قتل أسيرهما المنكود...

وفي الساعة الثامنة كان لوبين يتناول العشاء مع صديقه (روجر)، في فندق العنكبوت بكمبردج، وقد انضم إليهما رونالدستاندش.. وكان (روجر) قد حدثه قبل قدوم لوبين بالقصة كلها، فأضاف إليها لوبين ما حدث بعد الظهر، وأردف يسأله إن كان يعرف شيئاً عن هذه العصابة، فأجاب.

– إنني أعرف ما يكفي لكي تتوقعا الموت في كل لحظة... فقهقه لوبين في جذل وقال:

– لماذا؟.. هل عرفت ذلك القاتل المحترف الفارع الطول؟

– كلا. ولكني أعرف الكثير عن جمعية المفتاح الفضي. فاصغيا إلي.

(لقد بدأت هذه الجمعية تظهر في أوروبا عقب الحرب أي في سنة ١٩٢١ واعتاد الأعضاء أن يضعوا في باقة معاطفهم مفتاحاً فضيًّا صغيراً كشارة للعضوية، وهو رمز اتخذوه ليشير إلى أنهم سيفتحون

الباب المؤدي إلى عالم أفضل يسوده السلام والطمأنينة، وما لبثت هذه الجمعية أن اتسع نطاقها وامتدت فروعها إلى فرنسا وبلجيكا، وأخيراً إنجلترا ذاتها... وكان هدفها القضاء على معدات الحرب وممهداتها، بيد أنهم لم يكونوا يلجأون إلا إلى الاجتماعات والخطب الحماسية فحسب.

(ولكن حدث منذ أربعة أعوام... أن تطورت وسائل الجمعية وبدأت تسلك مسلكاً غريباً.... فقد حدث أن كنت وقتئذ أقوم بعمل هام في وزارة الحرب، فإذا برجل يطلب مقابلة أى شخص ليدلي إليه بمعلومات عامة... فلما قابلته ورأيت ذلك المفتاح الفضي أدركت أنه من أفراد الجمعية.. وما كان أشد دهشتي عندما قدم لي أوراقاً بها تفاصيل صنع مادة شديدة الانفجار اخترعها الفرنسيون... وكنت أعلم أن العلماء في فرنسا يقومون بتجارب في هذا المضمار، فأيقنت أن المعلومات التي جلبها لي الرجل صحيحة كل الصحة... ولكن عجبي تضاعف عندما رفض الرجل أن يبوح لي بعنوانه، أو يتقاضى أجراً على عمله هذا، وما لبث أن انصرف وتركني مشدوها.

(ولكن لم تمض أسابيع على ذلك حتى فوجئنا بأمر غريب، هو أن صورة كاملة من هذه المعلومات قد وصلت بمثل هذه الطريقة الغامضة إلى كل من ألمانيا وإيطاليا وأمريكا واليابان، بلا مقابل....

فأدركنا أن الجمعية قد بدأت تستخدم وسائل عملية في سبيل تحقيق مثلها الأعلى، وذلك بأن تسعى للحصول على المخترعات العسكرية الخطيرة لدولة ما، وتنشرها بين سائر الدول العظمى وبذلك لا يكون لأحدها قصب السبق في امتلاك ناصية الأمر إذا سولت لها نفسها أن تشهر الحرب.

(ولم تلجأ الجمعية إلى الوسائل الإجرامية إلا بعد سنتين من ذلك.. و لعلكما تذكر أن ما نشرته الصحف عن الرجل الذي وجد قتيلا بطعنة حنجر في الباخرة الهولندية.... فإن الغريب في هذه الجريمة أن الرجل لم يوجد معه ما يدل على شخصيته، إذ سرقت الأوراق التي كانت في جيوبه كما سرق جواز سفره.... وكان يبدو انجليزيا ولكن لم تثبت شخصيته بصفة قاطعة... فلما وصلت السفينة إلى ميناء هاروتش لم يستطع البوليس أن يكشف القاتل بين ركابها فاكتفى بتسجيل أسماء الركاب جميعا، وعناوينهم ولدى سؤال خادم القسم الذي كان القتيل نازلاً به... قرر أن المسافر كان يحمل حافظة الأوراق صغيرة من الجلد اللين يمسكها دائماً بيده، كما قرر حقيقة أخرى جعلتا نزداد اهتماما بالأمر، وهي أنه كان يعاون القتيل ذات يوم في ارتداء معطفه فرأى في الياقة مفتاحاً فضيا صغيراً.... و مع ذلك فإن هذا المفتاح لم يوجد في

مكانه عند فحص الجثه وما عليها من ثياب، مما يدل على أن القاتل قد نزعه وأخفاه...

(وكنا نفكر فيما إذا كان الباعث على القتل ذا صلة بعضوية القتيل في جمعية المفتاح الفضي- إذ استبعدت السرقة لوجود نقود القتيل كاملة- وفيما إذا كانت الجمعية قد بدأت تلجأ إلى العنف في أعمالها، عندما وصل إلى أسكتدلانديارد خطاب غفل من الإمضاء يقول فيه مرسله: (إذا أردتم معرفة الحقيقة في مقتل المسافر على الباخرة الهولندية فابحثوا عن السبب الذي من أجله قتل ماريو مارتيني بطعنة خنجر في جنوا قبل جريمة الباخرة بيومين وما الذي كانت تحويه حافظة أوراق القتيل؟.... إن جمعية المفتاح الفضي لا تزال حريصة على مثلها العليا، ولكن هناك خيانة بين بعض زعمائها).....

(وكان ختم مكتب البريد (كنسنغتون).... كما كان ورق الرسالة عادياً لا يحمل علامة ما.... ولذلك لم يستطع البوليس الاهتداء إلى كاتبها، فاتصل بالبوليس الإيطالي بشأن جريمة جنوا وعندئذ علمنا لدهشتنا أن هذه الجريمة وقعت حقيقة وأن ماريو مارتيني كان رساماً ماهراً في البحرية الإيطالية، وكان وقتئذ يشتغل بعمل رسوم سرية عن الغواصة التي اخترعها الإيطاليون، وكان المظنون أنها تفوق

الغواصات العادية إلى حد بعيد...

(ولم نعرف السر في سبب مقتل الإيطالي والرجل الثاني الذي قتل بعده بيومين... وأذاعت سكوتلاندبارد في جميع الصحف تطلب إلى مرسل الخطاب أن يتقدم إليها... ولكن في اليوم التالي وجد رجل ملقى في حديقة منزل بكنغستون، وقد دق عنقه... وتبين أنه يقطن بحجرة في الطابق الرابع، وزاره بعض الناس في الليلة السابقة ولبثوا عنده إلى وقت متأخر من الليل... أما من هؤلاء الزوار فذلك ما لم يمكن لأحد أن يعرفه... وقد تبين أن الرجل ألقى به من النافذة، كما تبين من مقارنة خطه بالرسالة أنه هو كاتبها... ولم يكن له أقارب أو أصدقاء، كما لم يكن يغادر حجرته إلا قليلاً.... فلما وجدنا مفتاحاً فضيًّا صغيراً في أحد أدراج حجرته، أدركنا أن الجمعية قد انتقمت من عضو خائن...

ومن المحقق أن الجمعية قد انحرفت بعد هذا عن خطتها الأولى، من توزيع الاسرار الحربية على الدول جميعها، وأما الآن فقد تحولت إلى عصابة إجرامية خطيرة يحاول بعض أعضائها الإفادة من هذه الأسرار وبيعها لمن يدفع لهم أكبر مبلغ من الدول الكبرى..

وفي هذه اللحظة جاء الخادم يطلب لوبين للتلفون، فلما عاد بعد

دقائق أخبر روجر أن مسز أسكديل قد أفاقت من سباتها، وذكرت له أن الفتاة زارتها لترى الرسالة الأصلية، فأخبرتها العجوز أنها مزقتها..... وفي هذه الأثناء اقتحم الكوخ أفراد العصابة وحقنوها في ذراعيها فلم تدر شيئاً مما حدث بعد ذلك... وأردف لوبين يقول:

- ولابد أن عامل البريد قد تحدث بأمر البرقية، فعرف بها رجال العصابة وكان ما كان... وعادت الفتاة لترى الرسالة بنفسها.....

- ولكن لماذا تبعها أفراد العصابة؟ ولماذا خافت لدى رؤيتهم وأمسكت بالعجوز مستنجدة؟. بل لماذا خدروها وحملوها معهم؟...

إن الأمر يستقيم لو فرضنا أن أميل وشركاه ارتابوا في مسلك الفتاة، وخشوا أن تكون في الرسالة بيانات خطيرة لا ينبغي أن تعرفها- ولعلها من الأعضاء العاديين في الجمعية- فاقتفوا أثرها وقبضوا عليها...

- لا ريب إذن أنها في خطر...

- ربما كان الأمر كذلك حقًّا!....

ومضى الرجال الثلاثة إلى البار ليتناولوا بعض الأشربة، وفيما هم يأخذون مكانهم شاهد لوبين رجلاً قصير القامة، ذو وجه مكتنز وعينين ضيقتين يشع منهما الخبث والدهاء، يدخل إلى البار ويأخذ مكانه بجوار الأصدقاء الثلاثة، وكان لوبين جامداً لا يفصح عن شيء.

فقد رأى في ياقة معطف الدكتور بلفاج مفتاحاً صغيراً من الفضة....

وكان الدكتور ثرثاراً، خصوصاً إذا تناول شراباً، فما كاد يجرع كأسه، حتى أخذ يتحدث إلى لوبين وصديقيه، وما لبث ستاندش أن سأله: معذرة يا سيدي ما هذه الشارة التي تضعها في معطفك؟

– إنها شارة جمعية أنتمي إليها، وسأذهب لحضور اجتماع لها الليلة... وأرجو أن لا تعدني مغالياً إذا قلت لك إن أنصارها يملأون العالم، وهي تتخذ المفتاح الفضي شعاراً لها، ورمزاً على فتح باب عالم أفضل وأكثر هناء وسعادة... والعضوية مفتوحة بلا تمييز.

– جميل جداً... سوف أطلب المزيد من المعلومات عنها.

فسأله بلفاج: هل لك أن تأتي معي لحضور اجتماع الليلة.... أنت وصديقاك... إن لكل عضو أن يحضر معه من يريد من أصدقائه...

– إنها مكرمة منك يا سيدي... وأين يعقد هذا الاجتماع؟

– في قصر أملكه ويدعى هارتلي كورت، على بعد ثلاثة أميال من هنا. وهو مؤجر في الوقت الحاضر لواحد من الأعضاء الراسخين في الجمعية نفسها.

ونظر في ساعته، ثم أردف:

– ويحسن بنا أن نمضي الآن فالاجتماع سوف يعقد في الساعة التاسعة والنصف...

فقال لوبين وهو يهز رأسه:

– أخشى ألا يكون في وسعي أن أحظى بهذا الشرف، لأنني مرتبط بموعد في لندن يضطرني للذهاب إليها الآن...

وكذلك اعتذر روجر فقام الطبيب ومعه ستاندش... وما لبثا أن غادرا الفندق...

وعندئذ ناول لوبين صديقه قصاصة صغيرة من الورق كان ستاندشش قد دسها في يده منذ لحظة، وقد جاء بها: يحسن ألا تحضرا... فلعل هناك من يعرفكما... ولكن كونا على استعداد في الخارج إذ ربما يحدث ما ليس في الحسبان...

فيما كان لوبين يتحدث إلى روجر فيما يجب عليهما عمله في مساء هذا اليوم... أقبل عليهما شاب طويل عريض المنكبين وسيم الطلعة حيا لوبين وصديقه وهتف يقول:

– ماذا تفعلان هنا.....؟

فقال لوبين: نحاول أن نسطو على المقصورة المجاورة...! وكان رونالد ستاندش معنا الآن، ولكنه ذهب ليحضر اجتماعا لجمعية

المفتاح الفضي...

فروجم غريغسون لحظة ثم غمغم: وما شأنه بهذه الجمعية....؟

– لقد دعاه سيد رقيق إلى الذهاب معه... ولكن خبرني يا غريغسون، هل سمعت عن رجل يدعى الدكتور بلفاج... أو مريديت... أو ألماني يدعي أميل....؟

فصاح غريفسون ضابط المخابرات:

– لست أعرف الأولين. ولكن هل أميل متوسط القامة أسود العينين، يدل مظهره على الخطر؟... حسنًا ربما كان أميل فايت... ولكن خبرني ما حقيقة الأمر فإنه يبدو لي أن الظروف قد جمعتنا في قضية واحدة...

فسأله لوبين: هل تعرف شخصاً يوقع بإمضاء ٥٠١..

فصاح غريغون: إنه غنغر لوفلاس بالتأكيد... فما شأنه؟

فقال لوبين: لقد ألقى برسالة في كوخ كنت فيه الليلة الماضية بينما كان أميل وعصابته يقتفون أثره...

وقص عليه لوبين حوادث اليومين الماضيين.

وقال غريغسون: إن كل ما أعرفه عن (لو فلاس) أنه منح إجازة

لمدة شهرين ومعنى ذلك أنه كلف بمهمة معينة... والذي أعرف أنه كان بولونيا بل لقد كنت أظن أنه هناك حتى الآن... أما أنا...

وخفض الضابط من صوته وهو يستطرد:

– أما أنا فقد جئت لمهمة غريبة. فعلى أن أقابل امرأة هنا في الساعة العاشرة فاسمع ما تريد أن تقوله لي، ثم أتصرف كما يبدو لي على ضوء المعلومات التي سأتلقاها... وها هي الساعة قد شارفت العاشرة ولن تلبث المرأة أن تحضر...

– أو لعلها لن تحضر يا همفرى.. وقد بدأت أرى جيداً وسط الظلام... ألا تعرف وصف المرأة؟....

– كلا... ولا يعلمه الرئيس أيضاً... ولكنه كان يذكر جمعية المفتاح الفضي، ويبدو أنك أيضاً على صلة بهذه القضية... ولكن هل تظنها الفتاة التي رويت لي قصتها الآن؟

– ربما كان الأمر كذلك... ولعلها تعمل في دائرة المخابرات مثلك.

– لم أسمع باسمها من قبل.. كما أن المرأة التي اتصلت بالرئيس لم تذكر اسمها. وقد كان اتصالها به بعد الغداء، وقد ذكرت في حديثها معه جمعية المفتاح الفضي، وأميل فايت.

– وهل تعرف شيئاً عن هذا الألماني؟

– كان يشغل مركزاً رفيعاً في إدارة المخابرات السرية الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى... أما الآن فهو جاسوس دولي، يخدم من يدفع له أجراً محتراً، ولكن هيا بنا إلى المنزل الذي يعقد فيه الاجتماع...؟ فقد بلغت الساعة العاشرة والنصف ولم تحضر المرأة، وقد لا تحضر....

لوبين في الأسر

سلك لوبين طريقاً جانبيًا ملتوياً في ذهابه إلى (هارتلي كورث) فلما شارفه أبصر صفًا من السيارات، فعلم أن الاجتماع لا يزال منعقداً.

فكمن الثلاثة في موضع منعزل خلف الأعشاب، وأخذوا يراقبون القصر، والأضواء المتلألئة في القسم الخلفي منه حيث كان يعقد الاجتماع...

وكانوا في مكانهم يرون جانباً من الموائد التي مدت للمجتمعين.. ويشاهدون رجلاً ممتلئ الجسم يلقي خطاباً... ولكنهم لم يستطيعوا سماع حرف مما يقوله... وأخيراً سمعوا صوت تصفيق حاد، ثم وقف على الأثر (مريديت) يلقي كلمة.

واستطاعوا أن يروا (رونالد ستاندش) يجلس بجانب الدكتور.

وانفض الاجتماع أخيراً، وغادر الحضور موائدهم، ووقفوا

حلقات صغيرة يتحدثون، ودنا في هذه اللحظة (رونالد ستاندش) من النافذة، وهو يتحدث إلى الدكتور بلفاج، ثم أشعل لفافة من التبغ وأدار ظهره إلى النافذة، فلمحوا ضوءاً صغيرا يتحرك في حركات متعاقبة. فغمغم لوبين: إنه يرسل الينا إشارة بطريقة مورس.

وبعد لحظة أردف: إنه يقول... هل أنتم هنا... أجيبوا بمثل صوت أحد الطيور....

فأسرع روجر يقلد نعيب البوم. وعندئذ بدأت الإشارات من جديد. وكان فحواها هذه المرة: (انتظروا سوف ألحق بكم. خطر....).

وخطا ستاندش بعد ذلك إلى داخل الحجرة، وفي الوقت نفسه كان المجتمعون ينفضون، وقد علا صوت محركات السيارات عند الواجهة الأمامية للمنزل...

وبقي الدكتور بلفاج ومريديت في الحجرة، على حين لم يكن يظهر من القصر وقتئذ أي ضوء آخر، وكان يبدو أنهما يتجادلان. وقد ظهر الانفعال الشديد على الطبيب... في حين راح مريديت يهدئ من ثورته... وأخيراً صاح الطبيب بعبارة سمعها الكامنون إذ قال في صوت حاد مرتفع:

– هذا جنون... لماذا لم تخبروني بالأمر؟...

وأخيراً انتهى جدالهما، ودنا (مريديت) من النوافذ فأوصدها في إحكام... وعندئذ تقدم لوبين نحو النافذة الموصدة وراح يختلس النظر خلال شقوق مصاريعها الخشبية، فشاهد بلفاج يذرع الحجرة وقد قطب جبينه...

ولكنه وقف فجأة وواجه الباب، وعندئذ رأى لوبين ظلًّا يسقط على الأرض، وتبعه رجل أسمر الوجه ذو وجنتين بارزتين وأنف معقوف حدس لوبين لتوه أنه أسباني.. فتقدم نحو الطبيب قائلاً:

- كيف الحال يا دكتور بلفاج؟...

- كما كنت أتوقع... فإن هذا الرجل شيطان لا تلين له قناة.

وسمع لوبين صوتاً جديداً، كان صاحبه مختفيا في ركن الحجرة يقول: إن غيره كانت إرادته حديداً... ولكنها تلاشت أخيراً... فالمسألة مسألة وقت...

- ولكننا لم يعد لدينا وقت نضعه... ثم إن هذا الرجل أرلو، الذي لم أسمع عنه إلا الليلة عند قدومي هنا، قد يكون يعرف الكثير... قد كان من الجنون أن لا تخبروني عنه من قبل ومن العجيب أنني دعوته بنفسي للحضور إلى هنا....

- وماذا لو فعل؟... ان ذلك كان يخفف عنا بعض مضايقاته ولكن

أعصابك شديدة التوتر الليلة يا دكتور...

– لعنة الله عليها، فما عدت أحتمل أكثر من ذلك... ولم يخطر لي قط أن الأمر سيطول إلى هذا الحد... ومن المحتمل بعد ما حدث ليلة الامس أن نفاجأ بأحداث أخرى...

– هدئ من روعك يا دكتور... وإني أعترف أنه كان من سوء الحظ أن صديقنا أميل سمح لذلك الشرطي المتطفل بأن يهزأ منه، كما كان من سوء الطالع كذلك أنه حسب (أرلو) عاملاً ريفيًّا غبيًّا... ولكني واثق أن (أرلو) هذا لا يعرف شيئاً عن حقيقة الأمور... وإلا لما مكث في كمبردج..

– لو أننا علمنا مدى معرفته بالحقيقة؟....

– ربما وصلنا إلى ذ لك قريباً....

وكان المتكلم قد دنا من نطاق رؤية لوبين، فوجده الرجل الطويل الذي كان في الكوخ... وفي الوقت نفسه سمع خلفه صوتا يغمغم في همس: يا إلهي... إنه غريغوروف!

وكان ستاندش هو الذي قال ذلك، ثم استطرد:

– انه أعظم المجرمين خطراً وأشدهم بطشاً... وهو يعمل في المخابرات السرية الروسية، وكان ينبغي أن أحذر من هو عندما

حدثتني عنه الليلة..

وفي هذه الأثناء كان الروسي يقول:

– لقد اتخذت هذا المساء بعض الخطوات التي تحول دون معرفة أرلو المزيد من المعلومات.. وأظنها كافية... أما الآن فهيا ننصرف من هذا المنزل.....

ولم تمض لحظات حتى أطفئ الضوء في الحجرة، وعندئذ ساد القصر ظلام دامس... وعاد لوبين وستاندش إلى زميليهما حيث سأل ستاندش عن سبب إنذاره لهم بالخطر فقال:

– كان كل شيء يبدو بريئاً طبيعيًّا، حتى رأيت مريديت، فتبينت أنني سبق أن رأيته من قبل.... وذلك عندما حكم عليه بالسجن سبع سنوات بتهمة التزوير، وكان اسمه وقتئذ فيرجوسن.... فوجدت من الحكمة أن أنذركم.... ولكني لم أر في الاجتماع أميل فايت، ولا غريغوروف... وهأنذا الآن قد رأيت الأخير، فلم يعد عندي شك في أننا وراء مغامرة خطيرة، وكما قلت لك في الفندق، فإننا أمام حالة تشبه حالة ماريو مارتيني الإيطالي... ولكن من ذلك الذي قبضوا عليه، وما هو السر يسعون لمعرفته، فهذا ما لا أستطيع أن أحدسه...

وفي هذه اللحظة انبعثت في وسط السكون صيحة مدوية، هي

صيحة امراة تستغيث.. وكانت صادرة من داخل القصر.. فأسرع الرجال الأربعة نحوه، وراحوا يبحثون عن نافذة مفتوحة يتسللون منها، فكان من حسن حظهم أن وجدوا الباب الخلفي للقصر غير محكم الغلق، فولجوه، وبعد لحظة كانوا داخل المنزل.

وكان السكون عميقاً والظلام شاملاً، فأشعل لوبين مصباحه الكهربائي حتى وجد الدرج، ومن ثم راح يرتقيه وخلفه زوملاؤه في حفة وحذر...

ورأوا بصيصاً من الضوء ينبعث من حجة كان بابها منزوياً، فأدركوا أنها حجرة داخلية ولكنهم قبل أن يصلوا إلى قمة الدرج سمعوا نشيج المرأة وعويلها، على حين أجابها صوت أجش غليظ:

- إن عقاب الخونة الموت.....

وعندئذ أسرع لوبين نحو باب الحجرة فدفعه مرة واحدة، ولدهشتهم وجدوا أنها حجرة للعمليات الجراحية، كالتي توجد في المستشفيات.. وكانت جدرانها ناصعة البياض والضوء فيها ساطعاً يبهر الأنظار... وكانت أدوات الجراحة تتألق أمام انظارهم، كما كانت منضدة العمليات في وسط الحجرة وحولها كثير من الأدوات اللامعة..

وبدت لهم الحجرة خالية، ولكنهم مالبثوا أن رأوا امرأة ملقاة في

ركن الحجرة الداخلي والدموع تهطل من عينيها.....

ولكنها كانت قد كفت عن النشيج وراحت تحدق النظر إليهم في دهشة وحيرة.. وكانت سمرة بشرتها تنم على أنها أجنبية عن البلاد.. وما لبثت أن وضعت أصبعها على فمها محذرة، إذ كانت غمغمة أصوات تنبع من الممر امام الحجرة، ثم غممغت:

- أنقذوني... أنقذوني الله عليكم...!!

فأجابها لوبين: سوف ننقذك، فانهضي.

- ولكني موثقة!...

فأسرع لوبين يذرع الحجرة إليها، ويحملها بين ذراعيه، إذ كان من المحتمل أن أحضر افراد العصابة بين آن وآخر، بينما كان لوبين يود الخروج بالمرأة في أسرع وقت حتى يعرف ما لديها من معلومات عن غريغوروف وأميل فايت وأتباعهما.

وعندئذ حدث أمر مفاجئ إذ أغلق باب الحجرة بغتة بصوت مسموع، فوضع لوبين المرأة على منضدة العمليات، وراح يفحص الباب فوجده من الصلب وقفله أشبه بأقفال الخزائن الحديدية...

ولم تكن بالحجرة نوافذ البتة، كما أن تحطيم هذا الباب يحتاج إلى طن من الديناميت... أو إلى ساعتين على الأقل حتى يستطيع لوبين فتحه

بمهارته المعهودة... وعندئذ كانت المرأة تغمغم في لكنة أجنبية:

– ويلاه... إنها الحجرة المرعبة التي يشرح الطبيب فيها أجساد الناس... والصوت لا ينفذ من جدرانها قط...

فقال لوبين: ما شأنك بهم يا عزيزتي؟. ولماذا سجنوك...

– لأنني عرفت أشياء ما كان ينبغي أن أعرفها... وقلت إنني سأبلغ البوليس.

– وما هي هذه الأشياء؟...

– لقد قبضوا على الرجال وسجنوهم في مكان بعيد.. وهانحن أيضاً قد غدونا سجناء بدورنا.

– ألا تعرفين شيئاً من هؤلاء الأسرى أيتها الآنسة؟...

– كلا يا سيدي... كلا... ولكن أحدهم عجوز، بينما الآخر في مثل سنك.. وقد حبسوهم في منزل كبير جدًّا... ولكن رباه!... إنني أشعر بشيء غريب!... والواقع أن لوبين كان يحس بذلك الشيء الغريب نفسه، ولذلك جلس فجأة إذ شعر بقواه تخور، وبأنه لا يستطيع أن يحرك ذراعيه أو قدميه... كذلك كانت حال زملائه الثلاثة، فقد سقطوا على الأرض واحداً بعد الآخر...

وحاول أن يخرج مسدسه، ولكن ذراعه لم تطاوعه وكأنها قيدت إلى جانبه بقيد من حديد... كذلك كانت قدماه كأنما سمرتا في الأرض.. وكان يشم رائحة ضعيفة لذيذة، أدرك أنها رائحة غاز يشل الحركة، ولكنه لا يمنع فريسته من الرؤية والسمع.

ورأى رجلاً ينحني فوق ستاندش ويوثق يديه وقدميه... وعندئذ أدرك أنه أيضاً قد عومل بالمثل وأنه قد ربط في مقعده.. . وما لبث الرجل أن اختفى وعاد السكون يشمل الحجرة من جديد....

وكان لوبين يهر بتبلد في ذهنه، فظل ينظر إلى ستاندش نظرة جامدة لا معنى لها، كشمل لا يعي... وما لبث أن شعر بوخز في ذراعيه وساقيه، فعلم أن المخدر قد بدأ يزول أثره... وأخيراً استطاع أن يفيق منه تماما، وأن يحرك رأسه فيرى روجر قد أفاق بدوره وكذلك ستاندش..... ولكن غريفسون كان لا يزال واقعاً تحت تأثيره... أما الفتاة فلم يكن لها أثر في الحجرة...

وكان واضحاً أن الغاز قد نفث في الحجرة من طاقة تكييف الهواء... أما أين كانت الفتحة، فذلك ما لم يعرفه لوبين... ولم يتسع له الوقت للتفكير به، إذ كان الباب قد فتح، ودخل منه غريغوروف والأسباني وأميل فايت ومعهم رجلان من أتباعهم.... فقال الروسي

وهو يشير إلى روجر:

– لقد كان هذا الرجل مع أرلو في الكوخ عصر اليوم ولكن من هذان الآخران؟...

فقال فابت لستاندش: أظنني رأيك وجهك من قبل... من أنت؟

– لا شأن لك بهذا....

واستطرد الروسي يقول للوبين:

– أليس من العجيب يا مستر أرلو... أن أبسط الخدع وأيسرها هي أوفرها نجاحاً؟ ودعني أقول لك انك جلبت المتاعب على نفسك وعلى أصحابك معاً... وكان ينبغي أن تدرك من أول الأمر... أنك تضايقني بتدخلك في شئوني، وأنني لن أسكت على فضولك هذا، ولن أهنأ حتى أضع له حدًّا.... ولكنك من جهة أخرى أتحت لنا فرصة اختبار شيء معين كنا نهتم به كل الاهتمام، ولذلك عولت على أن أبقى على حياتكم جميعا بشرط معين... هو أن تخبرني بالنص الحقيقي للرسالة التي تلقيتها من الكوخ أمس... واعلم أن حياتك معلقة على تحقيق هذا الشرط.

– هب أنني تلقيت هذه الرسالة، وأنني أخبرتك بفحواها، فهل تطلق سراحنا الآن؟....

فابتسم غريغوروف في خبث وقال:

إنك يا عزيزي المستر أرلو تحكم على عقلية سائر الناس بما توجبه إليك عقليتك أنت... ولا تنس أنك اشتهرت باختراع الرسائل، ولذلك فلن نطلق سراحك على الفور، وإنما ستبقى هنا حتى نفرغ من العمل الذي جئنا من أجله إلى هذه البلاد... ولكنك إذا أعطيتني الرسالة الحقيقية... فإني أعدك بالا يطول احتجازك أكثر من بضعة أيام... ولا ريب إن رجالا في مثل قوتكم لن يقتلهم جوع ثلاثة أيام أو أربعة... أما إذا رفضت الإدلاء الي بالرسالة، فاني أخشى أن تظلوا في هذا المحبس مدة غير محددة، ربما كانت شهورا أو أعواما... لأننا عندما نرحل الليلة سوف نغلق القصر ونشيع في الأنحاء المجاورة أن مستر مريدت قد رحل إلى الخارج...

- وماذا يكون موقف مريديت عندما تكتشف جثتنا؟

- إنه لا يعرفكم.... ولا ريب أنكم سطوتم على القصر وأغلق عليكم باب الغرفة بخطأ غير مقصود... خطأ رهيب أدى إلى كارثة....

- وهل أوثقت أيدينا وأرجلنا بخطأ غير مقصود أيضاً؟

- سوف نحل وثاق أحدكم يا مستر أرلو، وعليه أن يحل وثاقكم بعد رحيلنا... وسيكون في وسعكم أن تجولوا في الحجرة كيف شئتم،

وأن تصيحوا ملء أفواهكم وأن تقرعوا رؤوسكم بالجدران.

وكان لوبين قد أخلد إلى التكفير. وما لبث أن قال:

– هب أنني أخبرتك بفحوى الرسالة، فما هو الضمان على أنك ستحافظ على وعدك؟

– لا شيء. ولا تنس أنك لست في مركز يسمح لك بإملاء هذه الشروط.

– حسناً. سوف أجازف بحياتي... وأرجو أن يكون فحوى الرسالة ذا معنى بالنسبة إليك، فقد عجزت وزملائي عن فهمها. لقد كانت هكذا: (روز ماري ب ج س د و ر).

فقال الألماني: أين كانت الرسالة عندما فتشتك؟...

– حيث وجدتها فيما بعد... بين زجاج النافذة المحطمة.

– وأين هي الآن؟....

– في رأسي، فقد أحرقتها...

وراح غريغوروف والألماني يتبادلان الحديث همساً برهة، بينما كان ستاندش ينظر إلى الأسباني مليًّا... وأخيراً عاد غربغوروف يسأل لوبين: ألا تعرف معنى هذه الرسالة؟. أو شخصية كاتبها؟.

– كلا... فإنها مكتوبة بشفرة سرية فيما يبدو لي...

– ولماذا اختلقت تلك الرسالة الأخرى التي أبرقت بها عجوزك الشمطاء؟...

– لقد أردت أن أسخر من أصحابك.

– وهل يعلم أحد بفحوى الرسالة الحقيقية؟

– كلا... فيما عدا رجال اليوليس في بلمورتون... فقد أخبرتهم بها عندما أبلغتهم بمقتل الرجل الذي اغتيل في الكوخ.

– سؤال آخر يا عزيزي أرلو... ما الذي تعرفه عن تلك الفتاة دوريس فينابلز: لا شيء بالمرة... سوى أنها بارعة في تأليف القصص المسرحية.. وعندئذ قال الألماني أنه قد تذكر ستاندش، فقد كان يعمل بإدارة المخابرات منذ عام، فقال الروسي وقد ازداد قطوبه:

– ذلك يجعل للأمر وجها آخر.... لقد كنت أعتقد أن أمامنا عصبه من الهواة الحمقى...

فقال ستاندش: ولكني تركت هذا العمل في العام الماضي.

– هراء... ما الذي أتى بك إلى هنا الليلة؟

– لقد كان الدكتور بلفاج هو الذي دعاني لحضور الاجتماع...

– وبعد ذلك وقفت مع زملائك في الحديقة تتجسس علينا؟

– لقد سمعنا صرخة الفتاة...

– كان ذلك بعد عشرين دقيقة من فض الاجتماع! وقد كانت هذه الفتاة هي الشرك الذي نصبته لكم، إذ كنت واثقا من وجودكم في الحديقة.

وكان لوبين يضحك في سخرية، فجن جنون الروسي وصاح بالأسباني: جردهم من أسلحتهم يا كورتيز...

ثم تحول إلى لوبين صائحا: أيها الأحمق... هل تظن في نفسك القدرة على اعتراض سبيلي؟....

(حسنا. سوف تلقي جزاء حماقتك هذه. وسوف تموت وزملاءك ميتة بطيئة شنيعة... سحقاً لك ألا تكف عن هذا الابتسام؟....).

ورفع يده في غضب وأهوى بها على وجه لوبين في صفعة مدوية... ثم أشار إلى الأسباني ثانية ليحل وثاق غريغسون...

وكانت عينا لوبين تقدحان شرراً وهو يقول:

– لقد حدث لي هذا مرة واحدة قبل اليوم.. أما الرجل الذي فعل ذلك فقد قتلته.

ولم يجبه الروسي... وبعد لحظة كان الباب يوصد في عنف خلف رجال العصابة...

وعندئذ قال لوبين فجأة:

- إن هذا الرجل ليس أسبانيًّا، بل هو مكسيكي....

فنظر إليه الثلاثة الآخرون في حيرة، على حين قال روجر:

- ما معنى ذلك بحق الشيطان...؟

- لقد استطعت أن أفك رموز الرسالة السرية..

فصاح الجميع في دهشة، بينما استطرد لوبين: أجل... لقد عرفت السر... ولكني عرفته بعد أن حبسنا هنا كالجرذان...

انحنى رئيس الخدم في (ريتز كارلتون) أمام الزائر العظيم الذي كان يتناول العشاء في حجرة خاصة، وهو يقول:

- لعل كل شيء على ما يريده مولاي...

- شكراً يا هنرى... إن كل شيء على ما يرام كالعادة.

فانحني الخادم ثانية في احترام بالغ، أمام المليونير الكبير...

وانتهى (أيفور كالنسكي) من عشائه، فأشعل لفافة راح يدخنها على مهل... وقد غاص في لجة من التفكير...

فقد كان (كالنسكي) يواجه إحدى المعضلات الكبرى في حياته، كان يريد أن يقطع برأي فيما إذا كان يجب أن تقع حرب أوروبية أم لا.

إن الحرب تدر عليه الملايين... من بيع الأسلحة والذخائر الحربية، فهل يقدم عليها والعالم لا يزال جريحاً من الحرب الماضية....

وفيما هو في شأنه يفكر في هذه القضية، دخل عليه أميل فايت الألماني فحدجه كالنسكي بنظرة طويلة ثم قال له: فهمت من رسالتك أن لديك شيئاً بالغ الأهمية تريد أن تفضي به إلي... فما هو؟

– سيكون لدي بعد يومين أهم الأسرار العسكرية الإنجليزية فهل في وسعي الاعتماد على مكافأتك إذا جئتك بهذه الأسرار....؟

– و ما هي هذه الأسرار...؟

– لقد استطاع أحد علماء الكيمياء الإنجليز اختراع غاز جديد لا لون له ولا رائحة، أخف من الهواء قليلاً، لا يعقب ضرراً بعد انتهاء أثره، وهو أثر عجيب حقًّا، إذ يصيب الأعضاء بشلل كامل بحيث لا يستطيع المرء أن يتكلم أو يتحرك، وإن كان يشعر بكل ما يدور حوله... وتتوقف مدة هذا الشلل على كمية إلغاز المستعملة، وهي عادة بين عشر دقائق ونصف ساعة. ولكن أهم ما في الأمر... أن الإنسان لا يعرف بانتشار الغاز في الهواء إلا بعد أن يحدثأاثره، وعندئذ يكون من العبث مقاومته...

(واتصل بي غريغورق شريكي على الأثر وقررنا خطف المخترع،

حتى نجبره على البوح لنا بسره، كما اتصلنا بالدكتور بلفاج وهو يملك قصراً في كمبردج به حجرة داخلية للعملية لا ينفذ منها الصوت، فضلاً عن أن الطبيب عضو في جمعية المفتاح الفضي..

(ولكن الطبيب كان قد أجر قصره لشخص يدعى مريديت، وكان الاثنان يسعيان خلف المخترع أيضاً.... بل اختطفاه فعلاً منذ أكثر من عشرة أيام، ليعرفا منه سر الغاز، وقد أخبرني الطبيب أن غرضه مما فعل.. هو نشر طريقة صنعه لتعرف به جميع الدول عملاً بمبادئ الجمعية.. ولكني كنت أعرفه جيداً، فكذبته في وجهه وأفهمته أن يكف عن مخادعتي...

(فأخبرني أنهم خطفوا والدرون المخترع، ووضعوه في منزل منعزل ونحن الآن في سبيل الوصول إليه إما بمساعدة الجمعية أو بمعزل عنها.

(والسر الثاني يتعلق بطائرة جديدة اخترعها رجل أسكتلندي، يدعى جراهام كالدويل، قررنا في الوقت نفسه سرقة اختراعه....

(كان هذا يا مستر كالنسكي ما كنا قد عقدنا العزم عليه، لولا أن تطور الموقف تطوراً خطيراً... إذ حدث منذ أربعة أيام أن كان غريغوروف واقفاً في إحدى النوافذ عندما رأى رجلاً يحوم حول القصر، عرف فيه للتوحد ضباط المخابرات السرية، وكان قد رآه

في وارسو عندما اتصل بذلك الشاب الإنجليزى الذي عرف منه سر الغاز... ولا ريب في أن هذا الضابط، ويدعى (غنغر لوفليس)، كان على بينة من الأمر، وتبع غريغوروف إلى إنجلترا...

(فاضطر شريكي إلى العمل سريعاً، فتسلل خلف الرجل وضربه بهراوة على رأسه ألقته فاقد الرشد، ومن ثم حملناه إلى حجرتي. ثم نقلناه إلى قصر الدكتور بلفاج في كمبردج، ويسمى هارتلي كورت، لنسجنه في حجرة العمليات الداخلية.. فخقنته بمادة مخدرة، وأخذته في سيارتي مع رجل آخر من أتباعي أثناء الليل، وكان الضباب كثيفا حتى اضطررنا إلى السير في بطء... ولكن (لوفليس) أفاق من أثر المخدر أثناء الطريق، فتسلل من السيارة ولكني شعرت به، وأطلقت عليه رصاصة أصابته، ولكننا لم نجده ثانية إلا بعد أن كان قد ألقى برسالة سرية في أحد الأكواخ هناك... وقد فتشنا الكوخ فلم نجدها ولكن الشخص الذي عثر عليها، وهو رجل صعب المراس صلب العود يدعى المستر أرلو، بدأ يضايقنا هو وثلة من أصدقائه حتى استطعنا أن نوقع بهم في الشرك، ولكن بعد أن كلفنا ذلك غالباً، إذ اضطررنا إلى استخدام الكمية القليلة التي كانت معنا من غاز والدرون فيهم، وبذلك لم يعد لدينا شيء منه، وقد أثبتت هذه التجربة أن هذا

الغاز يستحق العناء الذي يبذل في سبيل الحصول عليه...).

فأخلد (كالنسكي) إلى الصمت لحظة وما لبث أن قال:

– سوف أعطيك الآن خمسة الآف جنيه لمصاريفك، ومتى حصلت منك على الاختراعين ودرستهما قررت المبلغ الذي يجب علي دفعه. وأنت تعرف عنواني في باريس، فما عليك إلا أن توافيني بالرسوم والتفاصيل إليه.

وتناول فايت المبلغ، ثم انحنى في احترام بالغ، وغادر الحجرة. ووقف أمام مدخل الفندق الكبير يتأمل قليلاً في الحركة الصاخبة التي تضطرم في الميدان، ويفكر في الاتفاق الذي عقده مع كالنسكي، عندما سمع فجأة صوتاً يقول خلفه بالألمانية:

– هل كانت أمسية موفقة يا هر فايت..؟

فاستدار دفعة واحدة كأنما أصيب بلطمة على رأسه، ولكنه لم يرسوى أحد عمال الفندق يرتدي حلة زاهية، ويقول في صوت رقيق:

– هل أحضر لك سيارة يا سيدي....؟

– كلا... ولكن ألم تسمع أحداً يتحدث إلي الآن بالألمانية؟ فرفع الرجل حاجبيه دهشاً وقال: الألمانية... هذا أمر عجيب حقًّا.

فزمجر (فايت) وتحول إلى الدرج ماضياً في سبيله، وقد أحس بقلق خفي، فعلى الرغم من أن الكلمات كانت ألمانية، إلا أن لهجة قائلها كانت إنجليزية بالتأكيد...

انتصار لوبين

ما كاد (فايت) يلج ردهة الفندق حتى وجد الروسي جالساً في انتظاره، وقد بدت على وجهه أمارات القلق، فلما شاهده مقباً ابتدره:

- هل قرأت صحف المساء؟

وأشار الروسي إلى فقرة راح (فابت) يقرأها في إمعان، وقد ثارت دهشته وكان عنوانها:

(قصر ريفي تدمره النيران).

وقد جاء في الخبر أن النار شبت في قصر (هارتلي كورث) فدمرته تدميراً في الساعة الأولى من الصباح، وقد ذهبت جهود رجال المطافئ هباء نظراً لقلة المياه في تلك المنطقة.. ويرجع أن سبب الحريق تماس في الأسلاك الكهربائية.

وساعد على شبوبها أن القصر كان خاليا من ساكنيه، فلم يفطن أحد للنار إلا بعد أن اندلعت وحمي أوراها...

وأضافت الصحيفة أنه اكتشف بقايا عظام بشرية بين الحطام، ولكن تبين أيضاً أن صاحب القصر الدكتور بلفاج كان يحتفظ ببعض الهياكل البشرية الكاملة لأغراض علمية تتصل بمهمته...

وسأل فايت الروسي بعد أن انتهى من قراءة الخبر:

- إلى أي حد يؤثر هذا الحادث في عملنا؟

- لا شيء حتى الآن... ما لم يكتشف البوليس حقيقة هذه العظام، وأشد ما أخافه أن يكون بجانبها ما ينم على شخصية أصحابها.... فيواجه (مريدت) على الأثر موقفا خطراً، وقد يعترف بالحقيقة للبوليس لإنقاذ نفسه.

فقال فايت: إنه لا يجرؤ على ذلك، فكن مطمئناً.. وسوف نبحث مصيره...

ثم مضى يحدثه باتفاقه مع كالنسكي، وأن من الواجب ذهابهما إلى أسكوتلندا للحصول على رسوم الطائرة من مخترعها، ثم قال التخلص منه وقتله وإلقاء المسئولية على بلفاج ومريديت والأسباني كورتيز...

فقال الروسي: إنها فكرة عظيمة ولكن هل يمكن تنفيذها؟

- نعم شرط أن نأتي بالمخترع ورفيقه إلى جسر الجواد، حيث يوجد والدرون مخترع سر الغاز فنحصل على سره منه، ثم نبيع الاختراعين

معاً صفقة واحدة.. ولا نلبث أن نسلم البضاعة إلى كالنسكي في باريس.

ونهض فايت وهو يفرك كفيه في ابتهاج وأردف:

– وسوف تنجح هذه الخطة حتماً ما لم يجد شيء ليس في الحسبان... وهو أمر أعده مستحيلاً... بعد أن قضينا على (أرلو) وأصدقائه، وبعد أن أمسكنا بضابط المخابرات لو فليس بين أيدينا وكذلك تلك الفتاة دوريس فينابلز التي لازلت في حيرة من حقيقة دورها في هذه المغامرة... فهل هي حقيقة لا تزيد عن عضو شديد الحماسة في جمعية المفتاح الفضي كما يقول مريديت؟ أم هي تعمل لحساب إدارة المخابرات بدورها؟

– مهما يكن من أمرها فما دامت تحت تأثير المخدر دواماً، فهي عاجزة عن عمل أي شيء.. وينبغي أن تظل كذلك حتى نجلو عن البلاد.

وأخلد فايت إلى التفكير برهة، وما لبث أن قال:

– أرى أن أعود معك إلى مركز القيادة الآن... فإن علينا أن ننام قليلاً، ثم نشرع في العمل..

ومضى فايت يحضر حقيبته ويضعها في السيارة، فلما درجت بهما في شوارع لندن كان الليل قد انتصف..

وكان الطريق طويلاً إلى جسر الجواد.. بحيث وصلا إلى القصر

بعد أن أشرقت الشمس. فتسللا إلى الداخل وفي عزمهما أن يأويا إلى حجرتيهما... ولكنهما وقفا في البهو قليلاً حيث صب غريغوروف لنفسه كأساً من الشراب، بينما وقف فايت في النافذة يتأمل المروج المجاورة.. ثم هتف فجأة: انظر إلى تلك النافذة يا غريغوروف.

فقد كانت امرأة تقف في النافذة منحنية إلى الأمام تحدق إلى ناحيتهما... ولم تكن تلك المرأة سوى دوريس فينابلز...

كان الطبيب قد غفل عن حقن الفتاة بالمخدر في الموعد المناسب، فأفاقت من تأثيره ووقفت في النافذة تستنشق هواء الصباح... أو هكذا قالت لغريغونروف وفايت عندما اقتحما حجرتها بعد قليل وراحا يستجوبانها. وراحت تصر على أنها عضو بجمعية المفتاح الفضي، وأن حماستها لمبادئ الجمعية هي التي جعلتها تعمل مع مريديت وأصدقائه.

ولكن فايت لم يقتنع بهذا القول، وأمسك بالفتاة يجرها نحو الباب، فصاحت به: إلى أين تقودني أيها الوحش؟...

– لقد كنت شديدة الفضول إلى معرفة مركز قيادتنا، ولذلك سوف أريك بعض حجراته السفلية... وستظلين سجينة في الأقبية الرطبة حتى تبوحي لنا بحقيقتك...

وعندئذ وقع بغتة أمر مفاجئ، إذ ظهر في باب الحجرة شاب يترنح

كالثمل، وقد شحب وجهه شحوباً شديداً، وحول رأسه عصابة قذرة... فلم تملك الفتاة نفسها عن أن تصيح:

– تومي... عزيزي تومي..... ماذا فعلوا بك أيها الحبيب؟... فغمغم الشاب في صوت خافت ضعيف:

– لقد سمعت صوتك يا دوريس، فجئت لأراك... وبدا الاهتمام في وجه الألماني فقال: أرى أنك تعرفين الكابتن لو فليس معرفة وثيقة يا عزيزتي... فصاحت به الفتاة في تحد: إنه خطيبي أيها الوغد...

– آه!... إذن فقد زعمت أنك عضو بالجمعية كي تحاولي إنقاذه؟..

– نعم... ولو كانت لديك ذرة من الشهامة لأخليت سبيلي...

– وهذا هو السبب في ذهابك إلى كوخ ذلك المغفل بعد الظهر لتحصلي على الرسالة الحقيقية؟....

وتحول إلى الضابط فقال له: هل لك أن تخبرني عن حقيقة معنى هذه الرسالة الغريبة؟... انني لم أفقه حرفاً لهذه الكلمات (روز ماري ب ج س د و ر) فماذا عنيت بها؟...

فنظر إليه لوفليس وغمغم: روز ماري؟ إنني لا أفهم شيئاً. وصمت فجأة، وما لبث أن أردف: إننى لا أذكر شيئاً... فالأمر كله كالحلم..

وضاق فايت ذرعاً بالاثنين فحقن لو فليس بالمخدر في ذراعه، على حين دفع الفتاة في عنف إلى خارج الحجرة، فاجتازت ردهات طويلة قبل أن تقف أمام باب ضخم من الحديد فتحه فايت، ودفعها أمامه إلى درج حجري ضيق فراحت تهبطه في بطئ وحذر.. وكانت قطرات الماء تتساقط فوق رأسها من السقف... على حين كانت رائحة الرطوبة العفنة تنبعث من الأسفل قوية حادة خانقة.

وكانت لا تكاد ترى ما أمامها لحلكة الظلام، ولكن عينيها اعتادنا ذلك بعد قليل، فإذا بها ترى في ركن من القبو فراشاً من القش رقد عليه رجل يتململ في ألم، وصليل السلاسل ينبعث من ناحيته كلما تحرك.. وكان يقف إلى جانبه شيخ أشيب يصيح بالأسير: ألا تتكلم أيها الشرير.. افض إلي بسر هذا الغاز الذي اخترعته حتى يعرفه العالم..

فأجابه المسكين في صوت خافت:

– لن أتكلم بشيء.. فدعني وشأني أيها الرجل الخائن وطنه وعند هذه العبارة وقع بغتة أمريكا ويشبه الخوارق... فقد انبعثت ضحكة مدوية من مكان ما في أعلا الدرج. ضحكة مليئة بالسخرية والتهكم...

فانتفض فابت وتلفت حواليه وهو يسأل في صوت متهدج:

– من الذي ضحك هكذا...!!

ولم يجبه أحد على سؤاله... وفي اللحظة نفسها كان مريديث يهبط الدرج في عجل، وانتحى بفايت وغريغوروف جانباً وراح يهمس لهما بكلام طويل.

وكان الجميع منصرفين عن الفتاة وهي تقف وحدها بجوار والـدرون التعس، وعندئذ أحست بيد تلمس كتفيها في الظلام فأجفلت... وكادت تنبعث من فمها صرخة حادة ولكنها حبستها في حلقها اذ سمعت صوتا يهمس في أذنها: إنني صديق يا دوريس... فدعى والدرون يطاولهم قليلا ويعدهم بإفشاء سره.

فتظاهرت الفتاة بالإغماء وسقطت على الأرض بجوار والدرون وما لبثت بعد قليل ان همست للمخترع بهذه الرسالة الغريبة.

فلما فرغ فايت من حديثه مع مريديت، كان يبدو كأنه في عجلة من أمره، اذ قال للشيخ: قال للدكتور بلفاج أن يحقن الفتاة بالمخدر ويحملها إلى حجرتها... أما نحن فلدينا عمل هام الآن.

وكان مريديت قد أخبره بأن رجلاً ايقوسيًّا قد حضر برسالة من ابن عمه الذي يعمل مع جراهام كالدويل مخترع الطائرة، ليخبرهم بأن رسوم الطائرة قد أعدت... وأن جراهام فرغ من إتمامها... وعليهم أن يعجلوا بالحضور قبل أن يحمل المخترع رسومه إلى السلطات

الحربية.... فتم الاتفاق على أن يذهب فايت وغريغوروف ومريديت وكوريتز معاً على أن يبقى الطبيب في القصر..

كان الطريق يمتد ميلاً بعد ميل فيبدو كشريط أبيض ملتو بين الوهاد الجبلية السوداء...

وعلى الرغم من أن الساعة قد بلغت العاشرة من المساء، إلا أن الظلام لم تشتد حلكته بعد، كعادة هذه الأصقاع الشمالية بحيث يكفى رجلاً لأن يقرأ كتاباً...

ولكن الرجل الوحيد الذي كان هنالك وقتئذ، لم يفكر في القراءة... بل كان مستلقياً على العشب يتطلع إلى الطريق اللامع وهو ينحني عند الأفق، خلال منظار مقرب وضعه أمامه على الأرض... وكان قد قضى في هذا الوضع أكثر من ساعتين، دون أن يظهر أثر لما كان يرقبه...

وأخيراً تنهد في ارتياح، ثم وثب على قدميه وراح يطوي المنظار، ويخفيه في حفرة قريبة وما لبث أن مضى في تمهل إلى جانب الطريق ينتظر السيارة التي رأى أنوارها منذ برهة، والتي ظل ساعتين يرقب وصولها.

ووقفت السيارة بجانبه فانبعث منها صوت يقول: هل هذا أنت يا مكفرسون؟....

فأجاب الرجل بلهجة الأيقوسيين الجبليين: أي!... أنا هو...

– أني أدعى مريديت، وإني وصديقي نعمل لحساب الدكتور بلفاج ولولا انه مريض لحضر معنا...

– حسناً إن كل شيء على ما يرام...

ومضى أمامهم في الممر المتجه نحو الكوخين وفتح مكفروسون باب الكوخ الصغير، وأضاء المصباح وهو يقول:

– هذا هو المخترع، جراهام كالدويل، وزميله الميكانيكي...

وكان الرجلان يجلسان متقابلين إلى المائدة، وهما يغطان في سبات عميق، وقد وضعا رأسيهما فوق أذرعهما.. على حين كانت أمامهما زجاجة ويسكى فارغة...

– أين الرسوم؟...

– في هذا الدرج، إلى اليسار.

فأسرع فابت وأخرج الرسوم من الدرج فدسها في جيبه.

وقال على الأثر: يجب أن نغادر المكان حالاً، ونأخذ المخترع ورفيقه معنا...

وبعد أن وضعوا الرجلين في الصندوق الخلفي الملحق بالسيارة

بدأت رحلة العودة..

وكان الليل ساكنا لا يعتكر صفوه شيء... كما كانت الرحلة مملة ثقيلة... وانتاب الأسباني الملل فأسلم جفونه للنوم وراح يغط في سبات عميق... وعندئذ عاد أميل فايت إلى الخطة التي أعدها لمثل هذا الموقف من قبل، فأخرج مفتاح المحرك في هدوء، وضرب به كوريتز فرق مؤخر رأسه ضربة أودعها كل قوته، أصابت من الأسباني مقتلاً فاختلج جسمه مرة واحدة ثم سكن إلى الأبد...:

وأوقف فايت السيارة، ثم أخذ مسدس الأسباني من جيبه، ومضى إلى الغرفة الخلفية للسيارة ففتح بابها ونادى الروسي وزميله، وكانا نائمين... فاستيقظ مريديت أولاً يسأل عن الخبر... فقال فايت:

- لقد توقفت السيارة ولكني لم أعد أقوى على إدارة المحرك... تعال ساعدني...

فأمسك مريديت مفتاح المحرك في يده، وعندئذ أطلق عليه فايت الرصاص فجأة فخر صريعا لوقته..

ثم تعاون معه الروسي على حمل جثتي الرجلين إلى ناحية من الطريق. كما وضع فايت مسدس الأسباني في يده، بحيث يبدو تصوير الحادث كان الرجلين تشاحناً فضرب مريديت الأسباني بمفتاح المحرك

وعندئذ أسرع الآخر بإطلاق الرصاص عليه، فخرا صريعين لوقتهما.

وقبل أن يتركا الجثتين ويكرا راجعين للسيارة، سمعا أزيز طائرة فوقهما على ارتفاع منخفض... وكان الصباح يرسل أشعته الأولى وقتئذ، فرأيا طائرة حمراء فوق رأسيهما كما رأيا الطيار يميل في مقعده ويلوح لهما بيده... غير أن وجهه كان مختفياً خلف القناع الجلدي السميك فلم يستطيعا تمييزه...

ما كاد الرجلان يعبران القنطرة المعلقة المؤدية إلى القصر حتى قابلهما الشيخ في المدخل قائلاً:

– هذا هو سر الغاز.. لقد رضخ ذلك اللعين والدرون أخيراً...

فتألقت عينا الألماني فرحاً، وقال:

– حسناً... وها هو جراهام كالدويل وزميله..

وانقض على العجوز بغتة فطرحه أرضاً وأوثقه بمساعدة الروسي، ثم حملا الجميع... العجوز وجراهام وزميله إلى القبو، وعادا إلى الردهة ليتفقا على الخطوة القادمة.

وفجأة انبعثت قهقهة مروغة، فدارت الدنيا بالألماني، وراح ينظر حوله كوحش يوشك أن يسقط في الشرك، وتلا ذلك صوت يقول بالألمانية: هل كانت أمسية موفقة يا هرفايت؟

أنها الكلمات التي سمعها أمام مدخل فندق ريتز في لندن!...

ترى هل فقد صوابه فجأة؟ ولكنه سمع بعد ذلك صوتاً مألوفاً يقول: يسرني أن نلتقي ثانية يا هرفايت.. هلا صعدت...؟

كان ذلك صوت مستر أرلـو.. الذي تركوه حبيساً في حجرة العمليات والذي حسبوه مات في الحريق....

وصعد فايت والآخرون الدرج كأنهم في حلم مروع، فإن بالحجرة تموج بالرجال ستاندش وروجر وغريغسون، وغيرهم كما رأى دوريس فينابلز ولوفليس....

ولم يجد فايت ما يقوله سوى هذه الكلمات التي كان ينطق بها في تلعثم: كيف... كيف استطعتم... الفرار؟...

وكان اهتمامه بأن يسمع الجواب من الشره بحيث لم يشعر بالرجال الذين كانوا يضعون الأصفاد حول رسغيه.

ومد لوبين يده فتناول رسوم الاختراعين من جيب (فايت) وهو يقول: ما كان لك أن تحاول قتل المستر أرلو، وتنجو بجلدك... وغمغم الألماني يقول:

- ولكن من تكون بحق السماء؟

– أني أرسين لوبين... ألم تسمع بهذا الاسم قبل اليوم.... (لقد كان أكبر خطأ وقعت فيه يا صديقي حين اعتقدت أن هناك قفلاً يعسر على لوبين فتحه....)

ولكن الألماني لم يسمع بقية حديثه، إذ أصابته نوبة من الإغماء اضطرت أحد حراسه لأن يمسكه بيده حتى لا يسقط على الأرض...

تمّت

مغامرات أرسين لوبين

المعركة الأخيرة

الكاتب الفرنسي المعروف

موريس لبلان

الفصلُ الأول

حين سمعَ «بابيلوس» صوتَ «لوبين»، ذهبت عنه رِعْدة الخوفِ التي كانت قد سرَتْ في أوصاله، وهمسَ قائلًا:

– إني سعيدٌ بلقائك.. كان في نيّتي أن أبحثَ عنك.

فقال «لوبين» في صوتٍ ودود:

– حقًّا..! أكنت تنوي أن تبحثَ عني..؟ يا للمصادَفة السعيدة..! لقد صدقَ مَن قال إنّ مِن القلب إلى القلب رسولًا..!

وذكر «بابيلوس» مقابلةً أخرى جرتْ بينه وبين «لوبين»، مقابلةٌ كان فيها «لوبين» أسيرًا بين أيدي رجال العصابة، والمسدساتُ مصوَّبةٌ إليه.

وفي هذه المقابلة، لم يقلْ «بابيلوس» إنه سعيدٌ بلقاء «لوبين»، وإنما رفع يدَه، ولطمَهُ على وجهه.. ومحالٌ أنْ ينسى «لوبين» هذه اللطمة، ومحالٌ– أيضًا– أنْ يصدِّق أنّ «بابيلوس» كان– حقيقة– في هذه

اللحظة سعيدًا بلقائه!

وقال «بابيلوس» مردِّدًا جملتَه في صوتٍ متحشْرج:

– نعم.. كنت أبحثُ عنك؛ كنت أريدُ أن أتحدَّث إليك.

– ويظهر أنكَ كنت شديدَ التلهُّف إلى لقائي، إلى درجةٍ جعلتك تنطلقُ بالسيارة في حركة فجائيةٍ سريعة حتى خُيّل إلي أنك تركتَ وراءك نصفَها الخلفي!.

فقال «بابيلوس» في صوتٍ مرتَعد:

– بل أسرعت؛ لأنّ ورائي مدفعًا رشاشًا.

ولم يقل «لوبين» شيئًا، ولكنه ضحك؛ فصاح «بابيلوس» قائلًا:

– أقسمُ إني لا أكذب.. لقد صدر الحكمُ بإعدامي. لقد أرسلتكَ إلى «والينو» ومعك المُدْية فاعتقدوا أني على اتفاقٍ معك، وأنَّك اشتريتَ إخلاصي، لقد تقرَّر إعدامي.

فهزَّ «لوبين» رأسَه، وقال:

ــ ولهذا خطر لك أن تبحثَ عني، وأن تذهبَ إليهم برأسي حتى يصدُرَ العفوُ عنك، ولكن اعْلمْ يا صاح أني أكرهُ أنْ أدفن مجزَّئا؛ إني أحبُّ أن يودعَ رأسي وجسمي في قبرٍ واحد.

فصاح «بابيلوس» متوسّلًا:

– قلتَ لك إني لا أحاولُ أن أخدعك، إني أصارحكَ بالحقيقة، إني أريدُ أن أعقدَ صفقةً معك.

فقال «لوبين» هازئًا:

– وبكم تشتري اللطمةَ التي أعطيتَها لي بالأمس؟!

– ألا تصدقني يا رجُل! قلتُ لك إنهم حكموا علي بالإعدام، إنهم يعدُّون المدفع الآن لإطلاقه عليّ. وأنت الرجلُ الوحيد في العالم الذي يستطيعُ أن ينقذني منهم. لقد لطمتُك حقيقةً بالأمس، ولكن الموقف إذْ ذاك كان مختلفًا.. ومع ذلك فالْطمْنِي الآنَ إذا شئت.. الْطمني مائةَ مرّة، بل ألفَ مرّة.. ولكنِ أنْقذني منهم، إني على استعدادٍ لأنْ أساعدك يا «لوبين» إذا نسيتَ ما حدثَ بالأمس. انسَ ما حدث واعْفُ عني وأنقذني منهم، إن في وسعي أنْ أمدَّك بمعلوماتٍ خطيرة.. لا تقتلني ولكنِ أصْغِ إلي؛ إني أعلم أنك كنتَ تنتظرني لتأخذني للنزهة، ولكن.. فقاطعه «لوبين» بضحكة ساخرة أردفَها بقوله:

– يظهر يا «بابيلوس» أنكَ مخدوعٌ في نفسك، أتعتقد– حقًّا– أنّ «لوبين» يمكن أنْ يهتم بشخص مثلك.. إني أطأ أمثالَك من الديدان الحقيرة عَرَضًا وأنا أسيرُ في طريقي. لقد كنت أعتقدُ أنّ هذه سيارة

«داتش كيلمان» فأردتُ أن أنتظره فيها.. فصاح «بابيلوس» قائلًا:

– إذًا.. فأنت تريد «داتش»؟ إنك في حاجة إلى «داتش» أضعافَ ما أنت في حاجةٍ إلي.. اتفقنا إذًا؛ سأمهدُ لك السبيلَ إلى اقتناص «داتش».. سأذكرُ لك كلَّ ما أعلمه.. متى يخرج؟ ومتى يدخل؟ وأين يذهب؟ بل إنّ في وسعي أنْ أساعدك على أن تقتنصَ كلَّ رجلٍ في العصابة.

استمرَّ «بابيلوس» في حديثه محاولًا أنْ يقنع «لوبين» بأنه صادقُ النية فيما يقول. وهذا يأبى أنْ يصدقه؛ اعتقادًا منه بأنها حيلةٌ يعمدُ إليها اليوناني لينقذَ نفسه من حكم الإعدام الذي أصدره ضدّه «لوبين» نفسُه.

كان «بابيلوس» يعلمُ من «أمثولة أربول» أنه مقتولٌ لا محالة.

فلما رأى «لوبين» خلفه، ومسدسُه مثبَّت في ظهره هَدَاه ذهنُه إلى هذه الخدعة، فأخذ يلقي إلى «لوبين» بمعلوماتٍ لا شأن لها؛ حتى يخلِّي سبيله.

صاح «بابيلوس» أخيرًا، وقد استولى عليه اليأس:

– لا تقتلني.. ولكن أصْغِ إلي بضعَ دقائق؛ سأقول لك كلَّ ما أعلمُ، فإذا رأيت أني كاذبٌ فيما أقول فاقتلني كالكلب.

قال «لوبين» في صوتٍ هادئ:

– إنّ المقبرة التي أنوي أنْ أدفنك فيها لا تزال بعيدةً؛ فيمكنك أن

تتكلّم كما تشاء حتى نصلَ إلى بابها!

وتكلم «بابيلوس» فقال:

– إنّ العصابة لا تنوي أن تشتغل بخطفِ الأطفال؛ خطف الأطفال مهنةٌ خطرة، ولا داعي لها. إنّ عملنا في المستقبل سيكون الحماية. نقول لرجل مثل «انسلهيم»:

ــ «ادفعْ مبلغَ كذا؛ وإلا قتلْنَا طفلتَك..» فإذا دفع تولَّيْنا حمايةَ الطفلة، وإذا أبَى قتلناها. فهل تعتقد أنّ لإعادتك «فيولا» إلى أبيها أيةَ فائدة؟

لا.. إنه سيضطرُّ إلى مواصلة الدفع وإلا قُتلت، لن نختطفَها مرة أخرى؛ لأن للخطف مشاقَّهُ وأخطارَه؛ ولذلك كان أولُ ما فعلناه هذا الصباح أنِ اتَّصلنا تليفونيًّا بـــ «انسلهيم» وقلنا له: «ادفعِ المبلغ المطلوب، وإلا لم تعدْ لك طفلة؛ لكي ينقذها «لوبين». نعم.. فحتى مَن كان مثلك لا يستطيع أن يعيدَ الحياة إلى طفلةٍ قُتلت.

فابتسم «لوبين» وقال:

– وهل تعتقدُ يا «بابيلوس» أنّ مثل هذه الحكاية التافهة كفيلةٌ بأن تجعلني أطلقُ سراحك!؟ يجبُ أن تفضي إليّ بمعلومات أهمّ من هذه.

فتقبَّضتْ يدُ اليوناني على عجلةِ القيادة، وهتفَ قائلًا:

– سأخبرك بما تشاء.. سلْني أجِبْك.

فقال «لوبين» في صوتٍ بارد:

– هناك سؤالٌ واحد.. إذا أدليْتَ إلي بجوابه؛ عفوتُ عنك.

– وما هذا السؤال؟

– مَن الرفيقُ الكبير؟

فصاح «بابيلوس» قائلًا:

– ولكنْ.. لا أستطيع أنْ أجيبَ عن هذا السؤال.

– حقًّا..! ولماذا؟

– لأنّ الإجابة مستحيلة! لو كنت أعلمُ لما تردَّدتُ، ليس في العصابة كلّها مَن يعلم الجوابَ غير الرفيق الكبير نفسُه بالتأكيد.. و«الينو» لا يعرف، و«كيلمان» لا يعرف. والتليفون هو الوسيلةُ الوحيدة للاتّصال به، ولا يعرف رقمَ التليفون إلا شخصٌ واحد.

فقال «لوبين» في صوتٍ يدل على العطف:

– وتكون سيئَ الحظ إذا لم تكن أنتَ هذا الشخص! فصاح «بابيلوس» قائلًا: إني لستُ هذا الشخص، ولكني سأخبركَ باسْمه، إنه.. يا إلهي! ما هذا؟!

وانطلقت من فمِ «بابيلوس» صرخةٌ تدلُّ على الرعب والفزع!

وأرسل «لوبين» بصرَه إلى حيث كان صاحبُه ينظر، فرأى سيارةً تنهب الأرض في نفس الاتجاه، وكانت نافذتُها مفتوحة، ومن هذه النافذة تتراءى للعين فوّهةُ مدفعٍ رشاش!

أدرك «لوبين» الخطرَ الداهم؛ فانْبطحَ على وجهه في قاع السيارة.

وفي اللحظة التالية، دوَّتِ الطلقاتُ النارية، وانهالَ على المقعد الأمامي سيْلٌ من النار.

***

أخذَ زجاجُ السيارة يتناثرُ حول «لوبين»، ولكنْ لم تصبهُ رصاصةٌ واحدة من ذلك السيل الجارف، الذي كان ينطلقُ من فوّهة المدفع الرشاش، إذ كان المقعدُ الأمامي الذي يجلس عليه «بابيلوس» هو هدفَ المُعتدين.

سكنت عاصفةُ الموت، وشعر «لوبين» أنّ السيارة أخذت تتلوّى يمينًا ويسارًا. ولم تكدْ تمضي لحظاتٌ حتى اصطدمت اصطدامًا عنيفًا!

لبثَ «لوبين» في مكانه تحت الأنقاض لا يتحرك، وقد استولى عليه ذهولٌ خفيفٌ، سمع في خلاله صرخاتِ امرأةٍ وصوتَ صفارة البوليس وجلبةَ قوم ينادُون ويصيحون.

أدرك «لوبين» أنّ الانتظار لا يتّفق وخطتُه؛ فتحاملَ على نفسه وأزاحَ أنقاض السيارة وخرج من بينها، فرأى حشدًا من الناس قد هُرِع إلى المكان، وأحاط به إحاطةَ السُّوار بالمِعصم.

كان لا بدَّ أن يشقّ لنفسه طريقًا، وأن يبتعدَ عن هذا المكان بأسرع ما يُمكن. ولكنّ نظرات الجمهور جعلت تنتَهِبه في فضولٍ شديد، فوضع يدَه على جيبه الخلفي، وكانت هذه الحركة منه واضحةَ المعنى؛ فانفضَّ الناسُ من أمامه، وأوسعوا له طريقًا يمرُّ منه.

انطلق «لوبين» وهو يوسّع الخطى إلى الشارع الجانبي، وانعطف في أول طريق لقيَهُ ليضلل شهودَ الحادث إذا أراد أحدٌ منهم أن يرشد رجالَ البوليس إلى الطريق الذي يسلكه.

ومرّت به سيارة استوقفها بإشارةٍ من يده، ووثبَ إلى داخلها دون أن ينتظر وقوفَها، وصوَّب مسدسَه إلى السائق وهو يقول:

– استمرّ في طريقك، وأسرع.

أطاع السائقُ الأمرَ الذي صدر إليه من «لوبين»، أو مِن المسدس بعبارة أدقّ، وقال: ألست أنتَ «أرسين لوبين»؟!

فدُهِش «لوبين»، وقال:

ــ وكيف عرفتني؟

فأجابه السائق في لهجةٍ تدلّ على الارتياح:

– لقد عرفتك من صورتك التي نشرتها الصحفُ بالأمس، وإني مسرورٌ لأنك خرجت سليمًا من هذه المعركة، كما أني مسرورٌ لأنك أنقذتَ تلك الطفلة المسكينة.

فقال «لوبين»:

ــ أمّا أنا فمسرور لأني قابلتك.

استرسل السائق قائلًا:

– إني أكره «موري والينو»؛ منذ بضع سنوات كان يفرضُ إتاوةً على كل صاحب سيارة، فمن أبى أن يدفعها نُسفت سيارتُه، ولَكَمْ أرهقني بهذه الإتاوة.

ولمّا بلغ «لوبين» المكانَ الذي ينشده؛ قال للسائق:

– قفْ هنا، وشكرًا لك.

فقال السائقُ في ابتهاج:

ــ إني أحبّ أن أخدم رجلًا مثلك، فإذا احتجتَ إلي يومًا من الأيام؛ فاتَّصل تليفونيًّا بمطعم كولومبيا.. تليفون رقم ٩٤٧٨٩. إنني أتغدى هناك دائمًا.

قفزَ «لوبين» من السيارة بعد أن دسَّ في يد السائق ورقةً مالية من فئة العشرين دولارًا، وهو يقول:

ــ إذا احتجتُ إليك؛ فسأستدعيك بالتأكيد.

ولكنه لم يرَ ما يدعوه إلى الثّقة المطلقة بهذا السائق، فدخل محطةَ السكة الحديد القريبة من المكان، وخرج من بابها الخلفي، ثم دارَ حولها، وذهب إلى فندق استوريا عن طريقٍ ملتوٍ حتى يعتقد السائقُ أنه كان ينوي السفر.

***

قال «فالكروس» يسأله:

– لقد عدتَ مبكّرًا؛ فما الذي حدث؟

فأشعل «لوبين» سيجارةً، وارتمى على المقعد، وهو يقول:

– لا شيء، وكلّ شيء.. لقد قتل رجلٌ يدَّعِي «بابيلوس» إن اسْمه لم يكن مدرَجًا في القائمة ولكن العصابة قتلته لأنها اعتقدت– خطأ– أنه خانها. فلما عرف أن حكمَ الإعدام صدر عليه أراد أن يفضي إليّ بكل ما يعلم، ولكن صوتَ المدفع الرشاش كان أعلى من صوته فاضطرّ أن يسكتَ ليتكلم المدفع!

فقال «فالكروس»:

ــ إنك تجازفُ بحياتك يا «لوبين»، فيحسن بك أن تكون أكثر حذرًا.

فقال «لوبين» وهو يبتسم: كنْ مطمئنًّا يا «بيل»، فإني لن أموت إلا بعد أن أقتنصَ الرفيق الكبير. وبهذه المناسبة.. ألم تذكرْ لي أنكَ متكفّلٌ بجميع نفقات هذه العملية؟

- بالتأكيد.. فكمْ تريد؟

وأخرج «فالكروس» من جيبه دفتر الشيكات، ولكنّ «لوبين» هزَّ رأسه وقال:

- لا أريد مالًا، ولكن أريد سيارة.. سيارة صغيرة الحجم عظيمة السرعة، فإني أعتقدُ مما سمعته من «بابيلوس» أن حادثًا مهمًّا سيقع عند بيت «انسلهيم»؛ وقد تنفعني السيارة.

ولما أرخَى الليلُ سُدولَه، كانت السيارة الجديدة في انتظاره عند الباب، فركبها وطار مسرعًا إلى ميدان «ساتون»، ولكنه لم يقف عند بيت «اسكل انسلهيم»، وإنما وقف على مسافةٍ قريبة منه؛ حتى لا يلفتَ إليه الأنظار.

لقد أنبأه «بابيلوس»- قبل أن يموت- أنَّ العصابة أنذرت

«انسلهيم» تليفونيًّا في صباح ذلك اليوم بأنّ طفلته ستُقتل إنْ لم يدفع الفديةَ المطلوبة.

ولا شكَّ أن الأبَ الحنون لا يريد أن تُقتل طفلتُه، وكان «لوبين» متلهّفًا إلى أن يشهدَ الطريقة التي سيتمُّ بها الدفع.

نزل «لوبين» من سيارته، ومشى يتسكَّع على الإفريز، وعيناه على باب البيت الذي يقطنُه والدُ «فيولا».

ولمح رجلًا متواريًا في الظلام على مقربةٍ من الدار، فقال في نفسه: يظهر أنّ العصابة خصَّصت أحدَ رجالها لمراقبة الأب الحنون.

فُتح بابُ البيت، وخرج رجلٌ يحمل تحت إبطِهِ لفافةً كبيرة من الورق.. وسقط ضوءُ المصباح على وجه الرجل، فعرف «لوبين» أنه هو بنفسه «اسكل انسلهيم»!

فهزَّ رأسه، وقال:

ــ ليت شعري.. أيُّ شيء في هذه اللفافة؟ إنّ فيها- فيما أعتقد- رزمًا من الأوراق المالية، لقد قرَّر «انسلهيم» أنْ يدفع، ولكني لن أجعلَه يدفع.

ودنا «انسلهيم» من الرجل المتواري في الظلام على مقربةٍ من البيت، ولكنه لم يناولْه اللفافةَ، وإنما تحدّث إليه برهة، ثم صعد إلى

سيارته، واللفافةُ لا تزال تحت إبطه.

فأدرك «لوبين» أنّ هذا الرجل ليس من العصابة، وأنه- على العكس من ذلك- شرطيٌّ سري أقامه «انسلهيم» عند الباب؛ ليسهر على حماية الطفلة المحبوبة.

وانطلقت سيارة «انسلهيم» تنهبُ الأرض.. وكانت هناك سيارةٌ أخرى منطلقة في أثرها، وفيها «أرسين لوبين»!

***

ظلتِ السيارتان تطويان الطرقَ في نفس الاتجاه حتى بلغتا ضواحي المدينة. فرأى «لوبين» من الحكمة أنْ يطفئ أنوارَ سيارته؛ حتى لا يلفتَ إليه أنظار «انسلهيم».

استمرّت هذه المطاردة فترةً طويلة من الوقت.

وعلى حين بغتة، أوقف «لوبين» سيارته؛ إذ رأى أنّ سيارة «انسلهيم» قد وقفت على قيد حوالي ٢٧ مترًا منه.. ولم ينزل «انسلهيم» من سيارته، ولكن «لوبين» رأى على الأشعة المنبعثة من مصابيحها جسمًا أسودَ اللون يخرج من النافذة ويطير في الهواء ثم يستقر على الأرض في صوتٍ سمعه «لوبين» في هذا السكون الذي يشملُ الأرض.. وعرفَ على الفور أنّ هذا الشيء ليس إلا اللفافةُ التي فيها الفِدْية.

قفز «لوبين» من سيارته، وانطلق صوبَ المكان الذي سقطت فيه اللفافةُ، في الوقت الذي تابعت فيه سيارةُ «انسلهيم» طريقَها.

ولم يثبْ «لوبين» إلى اللفافة، بل توارى خلف إحدى الأشجار مكتفيًا بالنظر إليها وهي في موضعها تغمرُها أشعةُ القمر.

وبعد دقائق، سمع «لوبين» خشخشةَ الشجيرات القريبة من اللفافة، ثم أزيحت الأغصانُ وبرز من بينها رأسُ رجلٍ تبعد كتفاه!

امتدت يدُ الرجل لتلتقطَ اللفافة، وقبل أنْ يلمسَها كان «لوبين» قد أخذَ بخناقِ الرجل وهو يقول في صوتٍ لطيف:

– أهذا أنت يا عزيزي «هيمي فيلدر»؟ إني سعيدٌ بلقائك.

حمْلقَ الرجل إلى وجه «لوبين»، وقد عقدتِ المفاجأةُ لسانَه، وجعلت اللون يغيضُ من وجهه، ففتح فمَهُ دون أن يتكلم.

فقال «لوبين» مازحًا:

– إني لست عفريتًا، ولكن اسْمح لي أن أحملَ عنك هذه اللفافة.

التقط اللفافةَ مسرعًا دون أن يتصدّى «هيمي فيلدر» لمنعه، وحين ملك صوتَه كانت الكلمةُ الوحيدة التي نطقها هي قوله:

مجنون!.

تأبّط «لوبين» اللفافةَ وهو يقول:

– والآن وداعًا أيّها الصديق العزيز.

وقبل أن يتحوّل لينصرف، سمعَ خفْقَ نعلٍ على قيد خطواتٍ منه..

والتمعتْ عينا «فيلدر» ببريق الأمل، فابتسم «لوبين» وهمسَ في أذنه قائلًا: كلا يا صديقي.

وارتفع صوتُ القادم قائلًا:

ــ هل عثرتَ عليها؟

وتولَّى «لوبين» الإجابة:

ــ لا يا صاح. إنّ «هيمي» لم يعثرْ عليها.. ولكن أنا الذي عثرتُ عليها؛ فارفعْ يديْك فوق رأسك، وإلا..

وقبل أنْ يتم «لوبين» جملتَه دوَّى طلقٌ ناري أصاب الشجرةَ التي كان «لوبين» واقفًا عندها.

ضاقتْ عينا «لوبين»، وضغط زنادَ مسدّسه.. ولم يكن في نيَّته أن يقتل الرجل؛ لأنَّه ما كان ليحفل بالحشرات الحقيرة، ولهذا اكتفى بأنْ سدَّد المقذوف إلى المسدس الذي يحمله الرجل.

طار المسدسُ من يده، ولكنه لم يرضَ بالهزيمة، فوثبَ يريد

الانقضاضَ على «لوبين».

تلقَّاه «لوبين» بأن ضغط الزنادَ مرة أخرى، ولكن الرصاصة لم تنطلق؛ لأنها كانت رصاصةً فارغة.

وقبل أن يضغطَ «لوبين» الزنادَ للمرة الثالثة، كان الرجلُ قد وصل إليه، واشتبكَ معه في عراكٍ عنيف.

كان الرجل ضخمَ الجسم كأنه عملاقٌ جبار، فكان ثقلُ وزنه من العوامل التي ضايقت «لوبين» على الرغم من براعته في فنِّ المصارعة وحذقه الأساليبَ اليابانية.

دام النضالُ طويلًا، وأخذ الرجلان يتدحْرجان على الأرض، وكلٌّ منهما يحاول أن يشدّ بقبضتيْه على عنق غريمه.

وأخيرًا ألفى «لوبين» نفسه طريحًا على الأرض، والرجل جاثمٌ فوق صدره، وقد أمسك بعنقه محاولًا أن يخنقَه.

وهتف الرجلُ قائلًا:

ــ لقد نِلْته يا «هيمي».. لقد نلته!!

ولكنّ «لوبين» لم يكنْ من الطراز الذي ينالُ بمثل هذه السهولة؛ فرفع يدَه التي كانت لا تزال ممسكةً بالمسدس، وضرب الرجلَ على

صلْعتِه بمقبضِه ضربةً جمعَ فيها كلَّ قوَّته.

وتراخت يدُ الرجل عن عنقه، فدفعه «لوبين» عن صدره، فتدحْرج وسقطَ على الأرض.

رأى «هيمي فيلدر» أنّ الواجب يقضي عليه أنْ يتدخَّل فأراد أن يثبَ بدوره على «لوبين» ولكنّه لكمَه في فكِّه لكمةً ألقتْه على الأرض غائبًا عن الوعي.

نهض «لوبين» واقفًا ونفض ثيابه، ثم حمل اللفافةَ التي تحتوي على الأوراق المالية.

وبعد لحظات، كان منطلقًا بسيارته راجعًا إلى المدينة، وقد خلَّف وراءه المقاتلين الجسورين راقدين على الأرض مُستغرقين في النوم الهَنِيء.

الفصلُ الثاني

يظهر أنه لا ضرورةَ لأن نقول: إنّ مستر «اسكل انسلهيم» كان يهوديًّا.

وهو رجلٌ بدينُ الجسم أسودُ الشعر، له عينان ضيِّقتان، تزدادان ضيقًا إذا ما استولى عليه الخوف، وله ابتسامةٌ لطيفة جذّابة، وأنفٌ شديد التقوّس.. من المؤكد أنه كان السببَ الأول الذي حمل «هتلر» على طرْدِ اليهود من ألمانيا.. وبهذا الأنف لا يستطيع أحدٌ من النازيِّين أن يعتقدَ أنه يمكن أنْ يكون رجلًا شريفًا رحيمَ القلب، وأنه جمع ثروته بوسائل مستقيمة غير مُلتوية.

كان «انسلهيم» جالسًا إلى مكتبه، تلوح على مُحيّاه أماراتُ الإعياء، ونورُ المصباح يسقط على وجهه فيُبْرز للعين شدةَ امْتقاعه، وكانت يداه موضوعتَيْن على المكتب، ولكن لو أنك تأمَّلتهما قليلًا لرأيت فيهما رجفةً خفيفة، وكان تحت عينيه خطوطٌ زرقاء تدل على أنه كابدَ في الأيام الأخيرة متاعبَ تمزِّقُ القلب.

وفي الطابق الأعلى، كانت طفلتُه «فيولا» راقدةً في فراشها، غارقةً في النوم الهنيء، لا يشغلُ ذهنَها غيرُ أحلام الطفولة العذبة.

ومِن أجل هذه الطفلة رضي اليهوديُّ أنْ يدفع الفديةَ المطلوبة.

حقيقةً، قد أعاد إليه «فيولا» ذلك الشيطان المسمى «أرسين لوبين» دون أن يتقاضى أجرًا عن إنقاذها.. ولكن «انسليهم» كان يعلمُ أنه لا بدّ أنْ يدفع الأجر للعصابة وليس لـــ «لوبين» حتى يكون مطمئنًّا إلى سلامة الطفلة.

وكان «انسلهيم» لا يجهلُ أنّ طفلته لم تُخطف؛ لأن في النية الفتكَ بها، وإنما أُريد من خطفها أنْ يكون نذيرًا يحمله على الدفع.

ولقد اتصلتْ به العصابةُ في صباح ذلك اليوم، وأمرتْه بأن يدفع.. وإلا قتلت ابنتَه.

كان هذا الإنذارُ هو السببَ في تلك الرحلة التي قام بها إلى ضواحي المدينة حين ألقى لفافة الأوراق المالية من نافذة السيارة في المكان المتَّفَق عليه دون أن يدري بأنّ «لوبين» خلفَهُ يرقُبُه ويرصدُ حركاته.

كان «انسلهيم»- وهو جالس إلى مكتبه- يسائل نفسَه عن السبب الذي يجعل مدينة عظيمةً- كنيويورك- مدينة اجتمعت لها كلُّ أسباب الثراء والرفاهية والقوة.. ما السبب الذي يجعل هذه المدينةَ واقعةً في

قبضة عصابة دمويّة، لا هَمَّ لها إلا ابتزاز المال والفتك بالأبرياء دونما رحمةٍ أو شفقة؟! ما السبب الذي يجعل البوليس عاجزًا مكتوفَ الأيدي أمام هذه النكبات المتوالية؟!

ولكنه لم يكن في حاجة إلى أنْ يسمع جوابًا من أحد؛ لأنه كان يعرفُ الجواب كما تعرفه أمريكا بأسرها.. لو أنّ القضاة كانوا شرفاء، ولو أنّ رجال البوليس كانوا غيرَ مرتشين؛ لَمُسحت هذه العصابة مسحًا تامًّا منذ زمن طويل.

ولكنْ.. كيف السبيلُ إلى القضاء عليها، والإرهابُ ناشرٌ جناحيه على المدينة، والحكمُ للمدفع الرشاش.

وحين طافتْ هذه الخواطر بذهنه استولى عليه الغضبُ.. لا لأنه كان يأسفُ لأن المدينة في قبضةِ العصابات، وإنما لأنه كان يعلمُ أنّ المال الذي دفعه لن يُردَّ إليه.

وفي هذه اللحظة، سرتْ في أوصاله رِعدةٌ فجائية، لم تكن ناشئةً عن الخواطر التي تواردت على ذهنه، وإنما كان مبعثُها تلك الحركةُ الخفيفة التي تبادرت إلى أذنه.

كانت نافذةُ المكتب مفتوحة، وعندها وقف «أرسين لوبين» يرقبُ اليهودي بعينيه المرحتيْن اللّتين تنبعث منهما سخريةٌ مُرّة.

وعندما تكلم كان صوتُه أشدَّ سخرية من عينيه. كان وقْعُ نبراته في الأذن أشبه بصليل السيوف.. ولقد مرَّت به لحظاتٌ وهو في مكانه هذا يتابعُ تلك الخواطر التي تصطخب في دماغ اليهودي.

وتكلم «لوبين» قائلًا: كيف حالك يا «أنسلهيم»؟

ولم يكدِ اليهودي يسمعُ هذا الصوتَ حتى تبدَّد ما كان يشعرُ به من الغضب والنقمة، ولم يعدْ يفهمُ أو يدرك إلا شيئًا واحدًا هو أنَّ طفلتَه المحبوبة راقدةٌ في فراشها، وليس هناك مَن يحميها مِن الموت الذي يترصَّدها.

حملق «انسلهيم» في وجه «لوبين» بعينين ينبعثُ منهما الرعبُ، ورفع يديه إلى رأسه يشدُّ شعرَه كأنه مجنونٌ فقد الوعي.

ثم صرخ قائلًا في نوبةٍ عصبيّة:

– لقد دفعت.. لقد دفعت! فماذا تريد؟ لماذا لا تتركني في سلام؟!

جلس «لوبين» على حافَّة النافذة، وقال مجيبًا:

– كلا.. إنك لم تدفع، إنك لم تدفعْ أيها الأخ.

فصرخ اليهودي للمرة الثانية قائلًا: أقسم.. إنني دفعت.

وأكسبه الرعبُ شجاعةً وبلاغة، فاسترسل قائلًا:

– لقد دفعت.. دفعتُ هذه الليلة.. كما نبَّهت عليّ. لا شك أنه حدثتْ غلطة، ولكنها ليست غلطتي. أقسم لك إني دفعت.

ومدَّ «لوبين» يديْه في جيوبه، فكادَ يُغمى على المسكين اعتقادًا منه أنّ عدوَّه سيخرج مسدسَه.. ولكنّ «لوبين» أخذ يخرج من جيبه رزمًا من الأوراق المالية، ويلقي بها على المكتب تحت عيني اليهودي.

كان «انسلهيم» يتابع بعينيه كلَّ رزمة يلقيها «لوبين»، وهي تطير من يده، وتستقرُّ على المكتب دون أن ينطقَ بكلمةٍ واحدة؛ لأنه كان في ذهوله أشبه بالصبي الذي يرى ساحرًا يخرج من أذنه اليسرى فأرًا.. ومن أذنه اليمنى أرنبًا.

وتكلم «لوبين» في لهجةٍ مرحة فقال:

– هذا هو مالُك يا «اسكل».. تسعون ألفَ دولار، فقد حجزتُ لنفسي عشرة آلاف بمثابة عمولةِ تحصيل بنسبة عشرة في المائة، وهكذا ترى أنَّك لم تدفع.

حملق «انسلهيم» في رُزَم الأوراق المكدَّسة على مكتبه، وقد استولى عليه رعبٌ جديد، ولكنه لم يحاولْ أن يلمسها كأنَّ في ملمسها الموت!

ولَمَّا تمالك روعَه صاح قائلًا:

– مِن أين جئت بهذه الرزم!؟

فقال «لوبين» مفسّرًا:

– يظهر أنها سقطتْ منك في أثناء سيرك، ولكنني كنت وراءَك لحسن الحظ فالتقطتُها، ولا أحسب أنّ دخولي من النافذة قد ساءَكَ، وأرجوك أنْ تعذرني في ذلك فإني مولَعٌ باستعمال سلالم الحريق.

سادَ الصمتُ برهة، ثم استرسل «لوبين» قائلًا:

– إني رجلٌ شريف، فلم يخطر لي على بالٍ أن أستولي على مالِك، ولكنَّ الشيء الذي يدهشني هو تلك الطريقة الشاذة التي تبذّرُ بها ثروتك، فإنني مهما كنت واسعَ الثراء فلن أفكّرَ في يوم من الأيام أن أنثرَ الأوراق المالية في الطرق ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال!

فازْدردَ «انسلهيم» ريقَهُ، وقال:

– هل تقصدُ أن تقول: إنك التقطتَ هذه الأوراق من المكان الذي رميْتُها أنا فيه؟

فأحنى «لوبين» رأسَه، وقال:

– هذا هو ما أردتُ أن أقنعكَ به منذ ساعة، ولكنْ يظهر أنَّ حظي من الفصاحة وحسن البيان قليل. فعندما رأيتُك ترمي هذه اللفافة إلى الأرض؛ قلتُ في نفسي: لا شك أنّ هذا الرجل مجنون.

فانفجر «انسلهيم» قائلًا:

- بل أنت المجنون! إنك بهذا العمل قد قتلتني.. قتلتَ ابنتي.

وكان صوتُه متهدجًا مختنقًا:

- إذا لم يصل هذا المال إليهم؛ قتلوا ابنتي.

فتقدَّم «لوبين» إلى وسط الغرفة، وجلس على حافّة المقعد، وهو يقول: حقًّا!

فقال الرجلُ مزمجرًا: يا إلهي! لماذا خطرَ لك أنْ تتدخل؟! أية أهميةٍ عندك للأمر؟ من أنت!؟

فابتسم «لوبين» وقال: إنني الرجلُ الذي أعادَ إليك ابنتك.

فهبَّ «انسلهيم» واقفًا، وصاح قائلًا: «أرسين لوبين»..!

فأحنى «لوبين» رأسَه، وتناول سيجارًا من الصندوق الموضوع على المكتب، فأشعله وهو يقول:

- أصبت؛ إنني «لوبين». ولعلك قد فهمتَ الآن السببَ الذي جعلني أفضّل أن أستعمل سلمَ الحريق. إنك مدينٌ لي بحياة طفلتك، فإذا كان لديك مالٌ كثير تريد أن تتخلصَ منه بهذه الطريقة الشاذّة؛ فلا مانع عندي مطلقًا من أنْ تقذفه إلى جيبي بدلًا من أن تقذفه على الأرض.

سادَ الصمت برهة، وأخيرًا تكلّم «انسلهيم» فقال:

– إني آسف لمسلكي معك. إني لن أنسَى صنيعَك مدى الحياة. ولكنْ إذا أردتَ أن تساعدني فاخرجْ ودعني وحدي؛ إني أريد أنْ أخلوَ إلى نفسي لأفكر، يجب ألا يراك أحدٌ هنا؛ إنْ عرفوا أنك كنت هنا قتلونا نحن الاثنين.

فقال «لوبين» في صوتٍ هادئ: كلا. ليس الاثنان!

وساد صمتٌ طويل جعل «لوبين» في خلاله ينظرُ إلى اليهودي كأنه يريد أن ينحتَ له تمثالًا.

وقال «انسلهيم» متسائلًا: لماذا جئت لزيارتي الآن؟

نفثَ «لوبين» من فمِه حلقةً كبيرة من الدخان، وقال:

– جئت لأعيدَ إليك هذه الأوراق، ولأدخّن سيجارًا من سجائرك الفاخرة، ولأشرب ذلك الكأس من العصير الذي يلوح لي أنْ ليس في نيّتك تقديمه إلي.. وأخيرًا لأرى إذا كان في وُسْعك أنْ تساعدني.

– وكيف أساعدك!؟ ألا تريد مالًا؟

فهزَّ «لوبين» رأسَه، وأرسل بصرَه إلى رُزمِ الأوراق المالية المكدَّسَة على المكتب، وقال:

– لو أني كنتُ أريد مالًا لما جئت إليك؛ فقد كان المالُ في جيبي كما ترى! وفضلًا عن هذا فإنّ لي صديقًا من أصحاب الملايين وضع خزائنَه تحت تصرفي، وهي لم تفرغْ بعد. كلا.. إني لا أريدُ منك مالًا، وإنما أريد ثقتَك ومعلوماتك.. خبِّرْني بما تعلم.

فهزَّ «انسلهيم» رأسَه في حركةٍ ميكانيكية وقال:

– لنْ أخبرك بشيء.

فنظرَ «لوبين» في ساعته، وتمتَمَ قائلًا:

– لماذا هذا التسرع!؟ يحسُنُ بك أن تتريّث.

سادَ الصمتُ برهة، ثم استرسل «لوبين» قائلًا:

من الجائز جدًّا يا «انسلهيم» أن ترجعَ عن رأيك، والرجوعُ عن الرأي دليلٌ على أن المرء حرٌّ في تفكيره، وأنّ له عقلًا، وأنه يستعملُ هذا العقل. وإني أعرفُ بالتأكيد أن لك عقلًا، وأنك تحبُّ أن تستعمله.

كان «لوبين» يتكلّم بطريقة ليس فيها شيء من التهديد أو الوعيد، ولكن «انسلهيم» لم يكن من الغباوة بحيث يغفلُ عن أنّ هذه الطريقة هي شعارُ «لوبين»، وأنه حين يتكلم بمثل هذه الطريقة يكون خطرًا رهيبًا، فلو أن مسدسًا كان مصوّبًا إليه لما كان أشدّ وقعًا في نفسه من هذه الكلمات الناعمة اللينة.

ولما سكتَ «لوبين» تكلّم «انسلهيم»، فقال في صوتٍ مرتعد:

– وعن أي شيء تريدُ أن تسألني!؟

فنظر إليه «لوبين»، وكانت نظرتُه مجردةً عن الزهو أو الانتصار، وقال: حدِّثني بكلّ ما تعلم.

فقال «انسلهيم» معترضًا:

– ولكنك تعلمُ من الأمر مثلما أعلمُ أنا. لقد اختطفوا «فيولا» لأني أبيْتُ أن أدفعَ ثمن الحماية.

فقال «لوبين» مردّدًا:

– ثمن الحماية! إني أعلمُ ذلك فاستمرّ.

– ولكنك لا تعلم بالتأكيد أنّ إنقاذك «فيولا» لن يجدي علي شيئًا، فإذا أبيتُ أن أدفع قتلوها.

– ولكن مَن همُ الذين سيقتلونها؟

– لا أدري، لست أعرفهم.

فهزَّ «لوبين» رأسَه، وقال:

– هذا جائز بالتأكيد. ولكن لديك على الأقل فكرةٌ عنهم. ما الطريقة التي يتّصلون بك بواسطتها؟ التليفون.. أليسَ كذلك!؟

ولكنْ هبْ أنّ مداعبًا ثقيلًا هو الذي هدّدك؛ كيف عرفت أنّ التهديدَ جدِّيٌّ!؟ هل إذا جاءك رجلٌ من عرض الطريق، وأمرَكَ بأن تدفع فهلْ كنت ترضَى أنْ تدفع؟

إنّ مجردَ التهديد لا يكفي لحمْلِك على الخضوع؛ فلا بدَّ أن هناك أمرًا معينًا جعلك تعتقد أن العصابةَ جادةٌ فيما تقول، وهذا هو ما أريدُ أن أعرفه.

نهضَ «انسلهيم» واقفًا وجعل يتمشَّى في أرجاء الغرفة، وقد لاحتْ على وجهه أماراتُ الاضطراب.

جعل «لوبين» يرقبه، وهو يعلم بتلك العاصفة التي تصطخب في صدره. هذا النضالُ الرهيب بين الخوف والجرأة، إنه يريد أن يتكلّم.. ولكنه خائف.

وكان «انسلهيم» قد بلغ في سيره جدارَ الغرفة، فارتفعت يدُه في سرعة البرق وضغطت زرًّا في الجدار، ثم تحول إلى «لوبين»، وقال في لهجةٍ تدل على الانتصار.

– والآن هيا اخرج.. هذا الجرس متصلٌ برجال البوليس السري الذين استأجرتهم لحراستي، إني لا أريد أنْ أُنزل بك أذًى؛ لأني مدين لك بكلّ شيء، ولكني لا أستطيع أن أتكلّم؛ لأن كلمةً واحدة تخرج

من شفتي معناها الموت.. موتي وموت «فيولا»!

فقال «لوبين» في صوتٍ رقيق:

- إني لا أرضى لك ذلك بالتأكيد.

ومشى إلى النافذة، فتخطَّى حافَّتَها، ووقف على سلم الحريق، وقال: إني ما زلت في انتظار معلوماتك، وسنلتقي في يومٍ آخر.

فهزَّ اليهودي رأسَه، وقال:

- محالٌ أنْ أتكلّم.

فرمَاهُ «لوبين» بنظرةٍ ازدراء، وقال:

- إنك ستتكلمُ في مرة أخرى!

ثم أخذ يهبطُ السلم، وما لبث أنِ ابْتلعه الظلام.

والواقع أنّ هذه الزيارة لم تسفرْ عن أيّة نتيجة، فما خرج منها «لوبين» بشيء جديد. كان في وسعه- على الأقل- أنْ يظفرَ بالتسعين ألف دولار، ولكنه أبى إلا أن يعيدَها إلى صاحبها شأنَ الرجال الشُّرفاء.

وأخذ يلعنُ نفسه لقلة احتياطه، إذْ مكَّنَ «أنسلهيم» مِن أن يستدعي الحارس، ولكنه سيكون أكثرَ حذرًا في المرة القادمة، وسيعرف كيف ينتزع الكلامَ من هذا اليهودي الماكر.

ويظهر أن «لوبين» كان منهمكًا في هذه الخواطر وهو ينزل السلم؛ فلم ينتبه إلى الخطر الذي كان في انتظاره.

فما استقرَّت قدماه على الأرض حتى شعر بجسمٍ صلب يضغط ظهرَه، وسمع صوتًا يقول:

– تعالَ معنا أيها الصديق؛ لنذهب بك إلى «نزهة» صغيرة!

***

لم تبدُ على وجه «لوبين» ذرةٌ من القلق أو الانزعاج وهو يجتاز عتبةَ الغرفة الداخلية في مقهى «شارلي».

ومضى يتصفَّح وجوه الحاضرين كأنما يتفرَّج على تماثيل مرصوصة في أحد المعارض. والحق أن وجوه هؤلاء الرجال كانت جديرةً بالتأمل؛ لأنَّ فيها أصدق تعبير عن روح الشر والجريمة. وكذلك مضى الرجالُ ينظرون إليه متفرِّسين ليرَوْا عن كثبٍ وجهَ هذا الرجل الذي جاء إلى تلك البلاد ليتحدَّى الحديدَ والنار.

كان «لوبين» مجرَّدًا من السلاح، إذْ فتشه أعداؤه وأحسنوا تفتيشَه في هذه المرة، فانتزعوا حتى المدْيَة المشدودة إلى ذراعه التي غفلوا عنها في المرة الأولى. بل لقد بلغ من ريبَتِهم أنهم جرَّدُوه من علبة سجائره ومِن مبْراتِه ومن القلم الرصاص؛ اعتقادًا منهم أنّ هذا الشيطان قد

يحيل حتى مثل هذه الأشياء إلى أسلحةٍ يتوسّل بها إلى النجاة!

ولو أن رجلًا غير «لوبين» جُرّد من أسلحته بمثل هذه الدّقة لاستولى عليه الارتياع، ولكن «لوبين» على العكس من ذلك كان مبتهجًا مسرورًا إذ رأى في هذه العناية خيرَ دليلٍ على أن له في نفس هؤلاء القوم مكانةً عظيمة.

لقد ظلَّ يبتسم، وظللت عيناه ترسلان هذا الوميضَ الساحر الهادئ الذي يثير الأعصابَ ويهيج النفوس.

تمتَمَ «لوبين» وهو يدير عينَيْه في الحاضرين: مرحبًا بكم أيها الإخوان.. صدقوني إني كنت شديدَ اللهفة إلى لقائكم، وليت شعري أيُّ نوع من الاستقبال أعددتمْ لي الليلة!؟

كان «هيمي فيلدر» بين الحاضرين، وقد شدَّ إلى رأسه بعضَ الضمادات والأربطة كتحية يقدّمها إلى المعركة التي جرتْ في الليلة الماضية.

مال «فيلدر» إلى «كيلمان» وقال: إنه مجنون.. هذا الرجل مجنون!

وكان «كيلمان» جالسًا على مقعده كأنه صخرةٌ لا يتحرك، وعيناه مثبتتان على «لوبين» ينظر إليه من قدمه إلى رأسه.

ولكن «لوبين» لم يكن مهتمًّا بـــ «كيلمان» أو بـــ «هيمي فيلدر»، أو بأحدٍ من هؤلاء الطغاه، وإنما كان بصره عالقًا بتلك الفتاة الجذابة

«فاي ادواردس».

وكان غريبًا ذلك الأثرُ العميق الذي تتركه هذه الفتاةُ في نفسه كلما عبرت طريقَها.

إنه لم يكن يعرفُ عنها شيئًا حتى الآن. لقد سمع صوتها في التليفون وهي تتحدث إلى القاضي «ناتير»، أو خُيّل إليه أنه سمع صوتَها لأنها لم تكنْ قد تكلّمت حتى هذه اللحظة ليتحقق من أنها هي بعينها صاحبة ذلك الصوت الموسيقي العذب.

لقد رآها في مقرِّ العصابة في الليلة التي استعادَ فيها «فيولا انسلهيم»، ولكنها ظلت صامتةً لا تنطق بكلمة واحدة. وحين دفعت المسدسَ إلى يده لبثتْ مطبقة الفمَ أيضًا! ولكنه على الرغم من صمتها.. وعلى الرغم من أنه لم يسمع أحدًا يذكر اسمَها إلا إنه كان موقنًا أنها لا بدَّ أن تكون «فاي ادواردس» التي همَّ «فرساك» بأن يحدّثه عنها.

كان وجهُها هو الوجهَ الوحيد في هذه الغرفة الذي يذكِّر المرءَ بأن في الدنيا جمالًا مُبهرًا! وكان «لوبين» سعيدًا وهو ينظر إليها.

فعلى الرغم من المسدسات المصوّبة إليه، وعلى الرغم من الخطر الذي يترصّده، وعلى الرغم من يقينه بأنه على وشك القتل؛ كان سعيدًا وهو يتأمّل في وجهها هذا الحسنَ الفتّان!

وكان هناك سؤالٌ يتردّد في ذهنه دون أن يدري له جوابًا:

لقد أعانته وهو في شدته، وزوَّدَتْه بالمسدس.. فلماذا.. لماذا فعلت هذا؟! أي سبب حَمَلها على إنقاذه؟! هذا هو السؤال الذي أعْيَاه جوابه.

كانت جالسةً على مقعدها جامدةَ الوجه كأنها تعيشُ في غير هذه الدنيا، ولا تدري بما يجري حولها. حين دخل الغرفةَ استقرّ بصرُه عليها. وقد خُيّل إليه أنه رأى في عينيها وميضًا غريبًا.. ولكنّ هذا الوميض ما لبثَ أنِ اخْتفى بمثل السرعة التي ظهر بها. وارتدّت «فاي ادواردس» كما كانت جامدةً كأنها قطعةٌ من الصخر.

التفت إليها «داتش كيلمان»، وقال:

– هذا هو «أرسين لوبين»!

فقالت الفتاةُ وعيناها مسمَّرَتان على «لوبين»:

– نعم.. إنه الرجل الذي قتل «موري والينو».

ولأوّل مرةٍ سمع «لوبين» صوتَها. وكان هو نفس الصوت الموسيقي العذب! فسرَتْ في أوصاله نفسُ النشوة اللّذيذة التي شعر بها حين سمع صوتَها في التليفون.

وقال «لوبين» يخاطبها: طاب مساؤك يا «فاي».

أطالت الفتاةُ نظرتها إليه، ثم تناولت سيجارةً من حقيبتها فأشعلتْها.

وعلى الضوء المنبعث من عود الكبريت رأى «لوبين» في عينيها ذلك الوميضَ الخاطف الذي رآه عند دخوله الغرفة منذ دقائق.. ولكنّه لم يصدّق عينيه، وخُيّل إليه أنه رأى هذا الوميض بين الوهم والخيال.

وأومأ «كليمان» برأسه إلى أحدِ رجاله، فمشى الرجلُ إلى بابٍ في الغرفة غير الباب الذي دخل منه «لوبين»، ففتحه وهو يقول:

- تفضَّلا.

فدخل الغرفة رجلان.

كان أحدُهما طويل القامة، عريضَ المنكبين، كأنه عملاق جبّار، يعلو عينيه حاجبان كثيفان. أمّا الثاني فكان على النقيض من صاحبه ضئيلَ الجسم، أصلعَ الرأس، ذا شارب صغير مخفوف. فجعل «لوبين» يتأمّلهما ويقارن بينهما، وهو يبتسم مبتهجًا، وقد استولت عليه رغبةٌ ملحّة في أن ينزع حاجبَ العملاق الكثيف ليلصقه في الموضع اللائق به تحت أنف الرجل الضئيل ليجعله شاربًا له!

عرف «لوبين» الرجليْن فورَ النظرة الأولى؛ فالعملاق هو مستر روبـرت أركريد زعيمُ تلك الجماعة السياسية التي تتولى القيامَ

بالحملات الإرهابية لمصلحةِ بعض المرشحين مستعينة بالعصابات، أمّا الرجلُ الضئيل فكان مستر «ماركوس بيلد» النائبُ العمومي لمدينة نيويورك.

ويظهر أنّ الرجلَ الضئيل كان يعرف مِن تاريخ «لوبين» ما جعله يقف متباعدًا في ركن الغرفة دون أن يجرؤ على الدُّنُو من «الشيطان» على الرغم من المسدسات التي كانت جديرةً بأن تحميه من أيِّ خطر يتهدّده، وكانت نظراتُه حافلةً بالخوف، فلم يملك «لوبين» نفسه وهو ينظر إلى جسمه الضئيل مِن أن يقول له: بخ!

وكما كان يتوقّع «لوبين» ارتعد الرجل خوفًا.

وقال «أركريد» يخاطب «لوبين»:

– إذًا.. فأنت الرجلُ الذي كنّا نبحث عنه.

– نعم إنني هذا الرجل يا «أركريد».

فحمْلق إليه العملاق وقال: وكيف عرفت اسمي!؟

– مِن صورةٍ لك رأيتُها في إحدى المجلات.

وجعل «أركريد» يصعد «لوبين» بنظراته، ثم قال:

– إني أرى أنْ لا فائدة في اللّف والدوران؛ ولذلك سأخاطبك في

صراحةٍ تامة. لقد سبَّبت لنا متاعبَ كثيرة، ولعلك تعرف أنّ جرائم القتل التي ارتكبتَها كفيلةٌ بأن ترسلك إلى الكرسي الكهربائي.

فقال «لوبين» مجيبًا:

– الواقع أني لم أكن أعرفُ هذا، فعندما حضرت إلى هذه البلاد كنت أعتقدُ أنه لا داعي لأن يحصل الإنسانُ على ترخيص لكي يباح له قتل الناس.

فقال «أركريد» في لهجةٍ تهديدية:

– إنّ الكرسي الكهربائي مصير كلِّ مخْبولٍ يحضر إلى هذه البلاد وهو يعتقد أنّ في وسعه أنْ ينظفها.. وأنت تعلم بالتأكيد ما ينبغي أن أفعله الآن.

فقال «لوبين» مصحّحًا:

– بل أعلم ما كان ينبغي لك أن تفعله! إنّ الواجب يقضي عليك، بصفتك رجلًا شريفًا، ومن أنصار القانون والنظام، أنْ تستدعي شرطيًّا وتسلمني إليه، ولكنك لن تجرؤ على هذا؛ لأنّ الناس قد يسألونك عن السبب الذي أتى بك إلى هذا المكان.

ساد الصمتُ برهة، وأشعل «أركريد» سيجارًا ضخمًا جذب منه بضعةَ أنفاس، ثم قال:

– ليس في نيتي أن أستدعي شرطيًّا.. لسبب واحد هو أنك لا تزال في مقتبل العمر، ومما يؤسَف له أن يموتَ مَن كان مثلك وهو غضّ الشباب.. إنك تكره– بالتأكيد– أن ترسل إلى الكرسي الكهربائي، أو تؤخذ إلى «نزهة» صغيرة، أليس كذلك؟

لبث «لوبين» صامتًا لا يتكلم، فاسترسل «أركريد» قائلًا:

– لو أنك أتيت لمقابلتي فورَ قدومك إلى هذه البلاد لأمكنني أنْ أسدي إليك خدمة كبيرة. إن هذه الأعمال التي تشغل نفسَك بها الآن تتعبنا وتتعبك، إننا لسنا ناقمين عليك لقتلك «أربول»؛ فقد كان غيرَ ذي شأن في العصابة، ولسنا ناقمين عليك لقتلك «والينو» فقد بدأ ينتفخ ويكبر في الأيام الأخيرة، وكان في نيَّتنا أن نتخلّص منه لو أنك لم تقتله.. ولكنك لا تزال ماضيًا في طريقك، وأخشى أن تمتدّ يدك إلى قومٍ نحرص على بقائهم. لقد وعدنا الجمهورَ بأن نقرَّ الأمن والنظام، وبصفتي رئيسًا لجمعية «تاماني» التي تقوم بالدعاية الانتخابية أرى من واجبي أن أضع حدًّا لنشاطك، وهذا مستر «بيلد» يؤيّدني فيما أقول.

فتكلم النائبُ العمومي للمرة الأولى في صوتٍ متحشرج فقال:

– بالتأكيد.. يجب أن أضع حدًّا لنشاطك. يجب القضاءُ على هذه الحركات التي لا داعي لها.

واسترسل «أركريد» قائلًا:

لقد تعهَّدنا للمرشحين بإقصائك من الميدان، وأنا رجل أحبُّ أن أبرَّ بتعهداتي، ولكننا رأينا ألا نشتدَّ في معاملتك، ولذلك قلتُ لصديقي «بيلد»: إنّ «لوبين» رجل عاقل، فلماذا لا نتقدّم إليه بعرضٍ معقول؟

كان الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى كلِّ هذه البلاغة الفيَّاضة التي عمدَ إليها رئيس جماعة الدعاية الانتخابية. كانت هذه الجماعة تعتمدُ في نصرة مرشّحيها على الحملات الإرهابية التي تقوم بها العصاباتُ لمصلحة هؤلاء المرشحين، فإذا جاء «لوبين» وقضى على هذه العصابات فقد قضى- ضمنًا- على جمعية «تاماني».

ساد الصمتُ برهة، ثم استرسل «أركريد» قائلًا في لهجة تمثيلية:

- أمّا هذا العرض فهو ربعُ مليون دولار.. ألا ترى أننا كرماءُ أسْخياء؟ إننا نعرض عليك ربع مليون دولار لكي تغادر هذه البلاد راجعًا إلى إنجلترا أو إلى أي بلد تشاء.. فما رأيك؟

فقال «لوبين» يسأله:

- وأيةُ خدمة تبغون مني لقاءَ هذا الثمن؟!

فجذب «أركريد» نفسًا طويلًا من سيجاره الضخم، ثم قال:

– إننا لا نبغي منك شيئًا. كلُّ ما ننشده هو إيقافُك عند حدّك. لا نريد أن تتدخل في شئون هذه المدينة، ولكنك تعلم بالتأكيد أنْ لا فائدة هناك على الإطلاق إذا سافرت أنت وبقي أذنابُك وأعوانك ماضين على نفس الخطة، ولهذا نريد منك أيضًا أن ترشدنا إلى رجال عصابتك لنتّفق معهم كما اتفقنا معك.. ألست ترى معي أنها صفقة رابحة؟

فقال «لوبين» مجيبًا: إنها صفقةٌ رابحة لك.. خاسرة لي.

فصاح «هيمي فيلدر»:

– إنه مجنون! ألم أقل لكم: إنه مجنون!

فدار «أركريد» على عقبيْه، وصاح بـــ «فيلدر» قائلًا:

– اصمت أيها الغبي. وإيّاك أن تتكلم.

ثم تحوّل ثانية إلى «لوبين»، وقال في صوته الهادئ:

– أصغ إلي.. إني لا أحاولُ أن أخدعك، سننقدك ربع مليون دولار لكي تغادر هذه البلاد، إني أهيئ لك فرصةً ما كنتَ لتحلم بها، فكيف ترفضُ هذا العرض؟!

– أرفض لأنك تصرُّ على أن تعرف أسماءَ رجالي.

– وأيّ ضيْرٍ في أن ترشدنا إليهم؟

- لا مانع لدي بالتأكيد.. إذا كانت لدي عصابة.

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أنني إنما أشتغل بمفردي.

- بمفردك..! هذا الكلامُ لا يقْبله العقل!

- ولكن يقبله الواقع. سلْ مَن شئت مِن رجالك تعلم أنهم لم يروني في يومٍ من الأيام إلا وحيدًا منفردًا. إنني الرئيس.. والوكيل.. والسكرتير.. والأعضاء.. والبواب أيضًا؛ فعصابتي مؤلَّفة من رجلٍ واحد. وهذا الرجل هو أنا. فليس عليك إلا أنْ تضع في جيبي الربع مليون دولار، وتقف على الميناء لتلوّح لي بمنديلك مودّعًا!

جعل «أركريد» ينظر إليه برهة، ثم اقترب من «بيلد» و«كيلمان» وأخذ الثلاثة يتحدثون في صوتٍ منخفض، بينما كان «هيمي فيلدر» يحرّك شفتيه حركاتٍ خفيفةً دون أن يخرج من بينهما صوتٌ مسموع، ولكن كان من الواضح أنه يريد أنْ يردّد جملته المعهودة:

- إنه مجنون.. إنه مجنون.

واستعار «لوبين» سيجارةً من أقرب الجالسين إليه، فأشعلها وأخذ يدخن وهو ينقل بصره بين وجوه الرجال المنبَثِّين في الغرفة، وفي عينيه مرحٌ وابتهاج، كأنما ينظر إلى صور هزلية مضحكة.

لم يكن «لوبين» من طرازٍ يخيفه التهديدُ والوعيد، وهو الرجل الذي أمضى حياته مستهدِفًا للأخطار. وما كان- أيضًا- من الطراز الذي يرضى بأن يتخلّى عن مهمةٍ أخذها على عاتقه سواء قدّموا إليه ربعَ مليون دولار أو ربع مليون رصاصة!

وعلى الرغم من أنّ الرجال الثلاثة كانوا يتبادلون الرأي في صوتٍ منخفض، إلا أن «لوبين» كان يسمع الشطرَ الأكبر من حديثهم.

وقد سمع «أركريد» يقول:

- وهل من المعقول أنْ يعمل بمفرده؟ إنّ كل هذه الأعمال الجريئة لا يمكن أن تصدر إلا عن عصابةٍ منظمة.

فقال النائبُ العمومي:

- إنني أعتقد، شخصيًّا، أنه صادقٌ في هذا القول.

قال «كيلمان»:

- إنه يعتمد على المفاجأة.. يباغتُ أعداءه على غير انتظار؛ فيظفر بهم. ولكنني لا أعتقد أنه يجمع حوله عصابة ما.

فقال «أركريد»:

- هذا جائز. ولكن يجب أن نعمل عملًا يرضي الشعب، إذا قدَّمْناه

إلى المحاكمة فضَحَنا وأطلق لسانَه بما يعرف، وإذا قتلناه هاجَ الشعب ضدّنا، ولكن يجب على أي الأحوال أن نتخلص منه. فما العمل؟

استمر الحديثُ برهة بين الرجال الثلاثة، و«لوبين» ماضٍ في تدخين سيجارته في غير اهتمام كأنما لا يحفل بما يجري حوله..

وكأن هذا الحديث يعني شخصًا آخر سواه.

ولكنه كان يفكر في ذلك الرجل العجوز «فالكروس» الذي استدْعاه من أوروبا، وجعله يعبر المحيطات والبحر لكي ينقذَ هذه المدينة الغارقة في الدماء.

إنّ من المحال أنْ يشي بهذا الرجل، وأن يذكر للعصابة أنه هو الذي يؤيده ويسانده، كما أنه من المحال أنْ يتخلّى عن المهمة التي جاء من أجلها.

في هذه المدينة، سبعة ملايين شخص يدفعون إلى القضاة وإلى رجال البوليس مرتباتٍ ضخمةً لكي يحموهم من السرقة والقتل. فإذا بهؤلاء الرجال يستخدمون مناصبهم في تأييد السرقة والقتل!

وليس في هؤلاء الملايين السبعة رجلٌ واحد يجهل هذه الحقائق، ولكن ليس فيهم رجل واحد يجرؤ على أن ينادي برأيه، وأنْ يقول للشرطي المرتشي:

إنك مرتش.. أو للقاضي الخَرِب الذّمة: إنك خَرِبُ الذمة.

ولكن «لوبين» سيقول هذه الكلمة الجريئة. فإذا كانت الشجاعةُ قد خانت سبعة ملايين رجل، فإنها لم تخنْهُ هو. وإذا كانت المدينةُ بأسرها لم تجد الكلمة التي ينبغي أن تقالَ فإن «لوبين» قد وجدَها.

وقطع عليه حبلَ تصوراته صوتُ «أركريد» وهو يقول:

– لقد سمعت يا «لوبين» كلّ ما ينبغي أن يقال. ليس لحلّ هذه المشكلة إلا طريقتان: طريقتك وطريقتنا.. فأيهما تختار؟

– ولكني أذكر أني ذكرت لك رأيي من قبل!

– ألا تنوي أن تعدل عنه؟

– إنّ «لوبين» لا يتراجع.

فهزّ «أركريد» رأسه وقال:

– إنها فرصة أفلتتْ منك.. وستندم عليها؟

ونهض واقفًا وهو يقول مخاطبًا «كليمان»:

– افعل، إذًا، ما اتفقنا عليه.

مشى إلى الباب وخلفه النائبُ العمومي، ولما انصرف الرجلان قال «كليمان»:

– تعال هنا يا «لوبين».

تكهْرَب جوُّ الغرفة، وأرهف الحاضرون أسماعَهم، واتسعت عيونهم انتظارًا لما يمكن أن تتمخّض عنه الحوادث!

كان صوتُ «كيلمان» باردًا، ولكن نبراته تنذر بشرٍّ مستطير، ولم يكن في نية «لوبين» أن يقف مكتوفَ اليدين حتى يجهز عليه أعداؤه، ولكنه في الوقت ذاته لم يكن يدري كيف يكون المخرجُ من هذا المأزق الحرج؛ إذ لا سبيل له وهو بمفرده إلى التغلّب على عشراتٍ من الرجال مدجَّجِين بالسلاح.

نظر «كيلمان» إلى وجهه وقال:

– إنك ولدٌ طيب.. لقد أتعبتنا، حقيقة، ولكنك كنت ولا تزال ولدًا طيبًا، فهل لك في أن تنتظر برهةً في الخارج حتى أستدعيك!

ولم يكن أحبّ إلى «لوبين» بالتأكيد من أن يغادر الغرفة، ولكنه لم يغادرها بالطريقة التي ينشدُها، وإنما انقضّ عليه رجلان من أبناء العصابة ومَضَيا به إلى الغرفة المجاورة.

وأشار «كيلمان» إلى اثنين من أعوانه بالاقتراب منه، وأخذَ يصدرُ إليهما تعليمات قائلًا:

– سأعهد إليك يا «ماكس» بهذه المهمة أنت و«جو». فأدِّيا له التحية العسكرية اللائقة، ثم عُودَا لمقابلتي هنا.

خرج الرجلان من الغرفة، وقد أمسك كلٌّ منهما بمسدسه استعدادًا لأداء التحية العسكرية.

التفت «كيلمان» إلى أعوانه، وقال: كان «لوبين» ولدًا طيبًا.

ثم أخرج من جيبه منديلًا مسح به دمعةَ حزن ترقرقت في عينيه!

عندما خرج «لوبين» إلى الطريق أنعشه النسيمُ العليل. وجلس في السيارة بين حارسيْه وقد ألصق كلٌّ منهما فوهةَ مسدسه بجنب الأسير، وأصابعُهما على الزناد حتى لا يتيحا له فرصة يفلت فيها، فحسبه أقلُّ حركة تجعل المسدسين يحملان إلى قلبه الموتَ الأكيد، وبينما كان السائق يدير المحركَ أرسل «لوبين» بصرَه إلى باب المقهى. وهناك رأي «فاي ادواردس» تسدُّ فرجةَ الباب بقوامها الرشيق.

كانت حافةُ قبعتها مرخيّةً على عينيها، فلم يدر «لوبين» إذا كانت تنظر إلى ناحيته أم لا.. وما كان هناك سببٌ يدعوه إلى الظنّ بأنها تتابعه بنظراتها، أو أنها تشعر بوجوده، ففي خلال الحديث الذي دار بينه وبين «أركريد» كانت جالسةً تدخّن سيجارتها مستسلمةً إلى خواطرها الشخصية غير عابئةٍ بما حولها. وعندما أصدر «كيلمان» الأمرَ بإعدامه كانت مهتمةً بإشعال سيجارة ثانية، بل إنها لم تكلّف نفسَها مئونة رفعِ عينيها. وكانت يدُها ثابتة لا ترتعد. وعندما دفعه الحارسان إلى خارج

الغرفة نظرتْ إليه نظرةً بدا فيها شيء من القلق والانزعاج، ولكن هذه النظرة ما لبثت أن تبدَّدَت، وارتد إلى وجهها جمودُه المعهود.

ولاحظ «ماكس» أنّ «لوبين» يطيل النظرَ إلى «فاي» وهي عند باب المقهى، فقال له:

– تأملها جيدًا. فبعد قليل لن يكون في وسعك أن تتأمل شيئًا!

فابتسم «لوبين» وقال: إنها تستحق أن ينظر إليها المرءُ، ومن حسن الحظ أنّ السائق بطيء في عمله!

رأى «لوبين» الفتاةَ تعبر الطريق خلف السيارة، في الوقت الذي جذب فيه «جو» الستائر فأسدَلها.

بعد لحظات تحركت السيارة فعبرت بعضَ شوارع المدينة، ثم انعطفت إلى ناحية الغرب.

كان «لوبين» يعرف أنه سائرٌ إلى حتفه، ولكنه ظلَّ مع ذلك رابطَ الجأش هادئ الأعصاب، لا تطرف له عين إذ كان موقنًا من أنّ الأقدار لن تتخلى عنه في مثل هذه اللحظة الخطيرة التي أخذ فيها على عاتقه أنْ يؤدي رسالةَ العدالة.. العدالة السليمة التي لا ترحم أحدًا.

إنه ما تدخّل وما قتل ابتغاءَ نفعٍ خاص، وإنما فعل كلَّ هذا لكي ينقذ سبعةَ ملايين شخص من قبضةٍ وحوش بشرية لا ترحم.

وما كانت هذه أول مرة واجهَ فيها الموت، وما كانت أولَ مرة ألفى نفسَه فيها في مأزق حرجٍ شديد، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يطردَ من ذهنه هذا السؤال: أتراه لم يبالغ في الثقة بنفسه والاعتداد بقوته!

كان في وسعه أن يطلق صرخةَ استنجادٍ كلما وقفت بهِمُ السيارة عند مفترق الطرق، ولكنه لم يكن من الطراز الذي يستنجد؛ إذْ أبتْ عليه كبرياؤه أن يلجأ إلى هذه الوسيلة التي لا يقرّها تاريخُه القديم الحافل بجلائل الأعمال. ومع ذلك فهَبْ رجال البوليس خفُّوا إلى نجدته فهل ينتظر أن يجني من هذه النجدة شيئًا ذا قيمة!؟ سينقذه الشرطي من حارسيْه، ولكنه سيرسل به إلى السجن. ولن يجدَ «لوبين» محكمة تقرّه على طريقته في تنفيذ العدالة، فإذا نجا من رصاص المسدسات فلن ينجو من الكرسي الكهربائي.

كان «لوبين» يعتقد أن حظَّه مع العصابة قد يكون خيرًا منه مع القضاء.

وكان قد سمع كثيرًا عن «النزهات» الصغيرة التي ترسل إليها العصابات الأمريكية أعداءها، ولكنه لم يكن يتوقع أن يُساق بمثل هذه السرعة إلى إحدى تلك النزهات. ومهما يكن من أمرٍ فسيتحقق الآن بنفسه ممّا إذا كانت الروايات التي سمعها كاذبة أم صادقة. ولما كان المثل

القديم يقول: إنّ للمعرفة ثمنها؛ فسيدفع «لوبين» حياته ثمنًا لما سيعرف.

أخرج «ماكس» علبة سجائره من جيبه، وقدّمها إلى «لوبين» وهو يقول.

– هل لك في سيجارة؟

– شكرًا؛ إن التدخين مباح فيما أرى للمحكوم عليهم بالإعدام.

في الوقت الذي كان فيه «ماكس» يقدّم إليه السيجارة كان «جو» متحفزًا لإطلاق النار إذا بدرتْ من «لوبين» بادرةٌ تدلّ على أنه ينوي أن ينقضّ على «ماكس».

جذب «لوبين» بضعةَ أنفاس من سيجارته، ثم أسند رأسه إلى وسادة السيارة، وقال متظاهرًا بأنْ ليس للسؤال شيء من الأهمية:

– مَن هذه الفتاة المسماة «فاي»؟

فأجاب «ماكس»:

ـــ ماذا تقصد بهذا السؤال؟

– إنها «دمية» بالتأكيد.

كان «لوبين» يعرف أن هذا اللقب أي «الدمية» إنما يطلق على الفتاة التي يتخذها زعيم العصابة خليلةً له.

إنّ زعيم العصابة رجلٌ دموي، يُمضي نهارَه وليله غارقًا بين الجثث، لا يفكر إلا في أراقة الدماء. ولكن إذا ما حانتْ ساعةُ اللهو انقلب رجلًا آخر لا يفكر إلا في إشباع شهواته والاستمتاع بما في الدنيا من جمال.

ولهذا كان لكلِّ زعيم عصابة «دمية» يلهو معها، ويزهو أمامَها بالانتصارات التي أحرزها في عالم الجريمة! ولكنه لا يشرك معه دميةً في الخطط التي يضعها أو في الجرائم التي ترتكبها العصابة.

الدميةُ امرأة خُلقت للمتعة واللهو، لا للحكم والسلطان. قد تكون رشيقةً، وقد تكون فاتنةَ الجمال، ولكنها لا يمكن أن تكون متوقِّدة الذكاء. كان «لوبين» متلهفًا إلى مضاعفة معلوماته عن «فاي ادواردس»، ولكنه كان يعلم في الوقت ذاته أنه لن يظفرَ بجواب من «ماكس» إذا وجّه إليه- في صراحة- الأسئلةَ التي تدور في خَلده. ولهذا قال في غير اكتراث كأنما مقتضياتُ الحديث هي التي تدعو إلى ذلك:

- الحقُّ أنها فتاة جميلة، ولكني لا أعتقد أنَّ لها ميزة أخرى غير الجمال. إنّ النساء من الغباوة والتقلّب بحيث لا يليق بالمرء أن يثقَ بهنّ.

فنظر إليه «ماكس» في عطفٍ وشفقة وقال:

- بل أنت الغبي. إنها امرأةٌ ذكية. إن في دماغها عقلًا لو وُزّع على

عشرةٍ من الرجال لأصبحوا من كبار الأذكياء.

فهزَّ «لوبين» كتفيه في استخفاف، وقال:

– هذا رأيك أنت، أمّا أنا فلي رأي آخر. كلما ازداد ذكاءُ المرأة تضاعف خطرُها. قد تبدو المرأةُ عاشقة لك مُدَلَّهَة في حبك، فإذا أصبح اليوم التالي رأيتَها تتخلّى عنك لأنها عشقت سواك.

فقال «ماكس» في ازدراء:

ــ «فاي ادواردس» تتخلى عن العصابة وتخونها! حقًّا لقد صدَقَ «هيمي فيلدر» حين نعتَكَ بالجنون! «فاي» تخون العصابة!؟ ألا تعلم يا صاح أنها حلقة الاتصال؟

فقال «لوبين» وهو لا يزال يتظاهرُ بقلة الاكتراث:

– حلقة الاتصال؟!

– نعم.. إنها موضع ثقة «الرفيق الكبير». إنها حلقة الاتصال بيننا وبينه؛ فإذا أراد أن يصدرَ إلينا أمرًا حملت هي إلينا أمرَه. وإذا أردنا أنْ نبعث إلى الرفيق الكبير برأيٍ لنا تولَّت هي إبلاغَه رأينا. إنها الشخصُ الوحيد في العصابة الذي يعرف الرفيقَ الكبير.

كان «لوبين» جامدًا في مكانه لا ينمّ وجهُه عن شيء مما يجري في

خاطره، كأن ليس في هذا الحديث الذي يسمعه ما يثير الاهتمام.

لو أنه عرف منذ اليوم الأول أنّ «فاي» هي حلقةُ الاتصال؛ لكان له شأن آخر، ولعرف كيف ينتفع بهذه المعلومات في الوصول إلى الرفيق الكبير. أمّا الآن فأية فائدة لما يعلم وهو مَسُوق إلى الموت!؟

لقد كان ينشدُ هذه المعلومات منذ اليوم الأول الذي وطئت فيه قدماه الشاطئ الأمريكي. ولكنها معلومات لا يمكن أن يرضى رجلٌ من العصابة بالإفضاء بها، وما جاءته الآن إلا عفوًا، وما انفرجت عنها شفتا «ماكس» إلا وهو يعتقد أنه يلقي بها إلى رجل ميت.

تنهَّد «لوبين»، ثم قال ونبراتُ صوته باردةٌ على عهدها:

– مما يؤسَف له أني سأموت قبل أن أتعرَّف إلى الرفيق الكبير. كان يسرني أن أعرفه.

فضحك «ماكس» وقال:

– وهذا الشوق هو الذي قادك إلى هذا المصير.

فقال «لوبين» معترفًا:

ــ إنه، فيما أرى، رجلٌ عظيم. ولكن الشيء الذي يدهشني هو أنك وزملاءك ترضون بأن تتلقَوْا أوامركم من رجل لم ترَوْه في حياتكم.

أعني.. ما الذي يجعلكم تتعلقون به؟

فضرب «ماكس» جبينَه براحة يده، وهو يقول:

– إنّ في دماغه عقلًا. إنه رجلٌ يعرف كيف يبتكر العمل. ولقد كان العمل نادرًا عقب إباحة الشراب.

هزّ «لوبين» رأسه مستفسرًا. فاستطرد «ماكس» يقول شارحًا هذا الغموض: عندما كان الشراب محرّمًا كان المهربون من أسعد الناس. فلمَّا أبيح الشراب لم يعدْ لنا ما نفعله. وكان يجب أن نعيش وأن نبحثَ عن عمل نرتزق منه. وبدأنا نشعر بالضيق والحرج والفاقة. وفي تلك الأيام، ظهر الرفيقُ الكبير فأنقذنا مما كنَّا فيه.

– وكيف أنقذكم؟

– دبَّرَ لنا العمل. إنه رجلٌ متوقِّد الذكاء، عظيمُ الذهن، لا يُقْدم على حركة صغيرة إلا بعد أن يحسب لها حسابًا. إنه لا يخطئ. فمَنْ عمل في رعايته أمِنَ الوقوعَ في أيدي البوليس.

ظلّت السيارة ماضيةً في طريقها، وكانت الرحلةُ طويلة، لم يكن «لوبين» يتوقع بالتأكيد أن يستفيدَ من هذه المعلوماتِ والموتُ يرفرف بجناحيه فوق رأسه؛ فقد تكون اللحظة التالية هي اللحظةَ الأخيرة في حياته.

إنَّ المعروف عن العصابات أنها لا تُجْهز على أحدٍ من أعدائها إلا إذا

أحاطته بالمراسيم والتقاليد المعهودة، فيوقفونه في مكان ما ويطلقون عليه النار كأنه جنديٌّ صدر الأمر بإعدامه، ولكن من المحتمل أيضًا أنْ تشذ العصابة في هذه المرَّة عن هذه المراسيم؛ فيكتفي «ماكس» وصاحبُه بإطلاق النار عليه وهو جالس بينهما في السيارة، وإلقاء جثته في عرض الطريق.

ومهما يكن مِن أمر. ومهما يكن مِن أمله في الحياة أو الموت، فقد استرسل «لوبين» في توجيه أسئلتِه إلى «ماكس» بنفْسِ قلة الاكتراث التي تظاهَرَ بها من أول الأمر حتى يلقي في روع جليسِه أنه لا يتعمّد استجوابَه، وأن هذه الأسئلة إنما تردَّدت على لسانه عرضًا.

قال «لوبين» يسأله:

ــ ولكن كيف جاءَ الرفيق الكبير؟ أعني كيف ظهر للمرة الأولى.! فإذا كنتم لم تَرَوْه من قبل ولم تسمعوا عنه؛ فكيف يمكن أن تطمئنوا إليه؟ وكيف يمكن أن تعرفوا أنه قد يكون ذا نفع لكم؟

فابتسم «ماكس» وقال: إنه رجلٌ ذكي. وقد دبَّر كلَّ شيء.

– ولكن كيف بدأ؟ كيف تمكّن من الاتصال بكم في أول الأمر؟ كيف سمعتم به في المرة الأولى؟

فابتسم «ماكس» وقال:

ــ لا جواب عندي عن هذه الأسئلة، فلَكَ أنْ تخمّن الجواب كما تشاء، ولديك متسعٌ من الوقت للتفكير.

وفي هذه اللحظة، هدَّأت السيارة من سرعتها، ففهم «لوبين» ما يرمى إليه «ماكس» وقال:

- هذا صحيح. إن لدي متسعًا من الوقت للتفكير!

الفصلُ الثالث

عندما خفَّفَت السيارة من سرعتها، أرسل (لوبين) بصرَه إلى الطريق من خلال النافذة الأمامية فوجدَ الأشجار قائمةً على الجانبين، وكأنهم في شبه غابة.

ولم تقف السيارةُ في ذلك المكان وإنما انعطفت إلى اليمين في حركةٍ حادة، وسارت في طريق ضيقٍ تحفّ به الأشجار المتشابكة الأغصانَ التي كانت كفيلةً بأن تحجب ما يجري في داخل هذا الطريق الضيق عمَّنْ يكون سائرًا في الطريق العام.

أخذت السيارةُ تثبُ وثَبَاتٍ متقطعةً كلما مرتْ بجزء غير ممهَّدٍ من الأرض.

شعر (لوبين) بأن المرحلة الأخيرة قد دنت، واشتدّ خفقانُ قلبه، وتوترت أعصابه، ولكنه لم يكن خائفًا.

كان الطريق يضيق تدريجيًّا كلما تقدَّمت بهم السيارة، وبعد مسير بضع دقائق وقفت دفعة واحدة أمام بابٍ يفضي إلى حديقة يحوطُها سياج منخفض.

كان هذا المكان في رأي (لوبين) أصلحَ مكان لارتكاب جريمة القتل. ففي وسعهم أن يطلقوا عليه النارَ دون أن يترامى دوي الطلقات إلى أحدٍ في هذه المنطقة المهجورة. وفي وسعهم أن يتركوا جثتَهُ دون أن يجَشِّموا أنفسَهم مئونةَ دفنها وهُمْ مطمئنون إلى عدم العثور عليها إلا إذا قادت المصادفةُ أحدَ الناس يومًا إلى هذه الحديقة المهجورة.

وقد تقع هذه المصادفةُ بعد عام أو عامين أو ثلاثة، وعندما يكون الناس قد نسَوْا اسم (أرسين لوبين)، واعتقدوا أنه اختفى فجأة من تلقاء نفسِه كما ظهر فجأة. وبهذه الطريقة تتحقق غاية (اركريد) وأصحابِه، فيتخلصون من (لوبين) دون أن يهيّجوا الشعب ضدّهم.

نزل (ماكس) من السيارة، وهو مصوّب مسدسَه إلى (لوبين) قائلًا:

- تفضّل أيها الصديق العزيز.

وخلف (لوبين) نزل (جو) ومسدسُهُ في يده.

ولم يكن (لوبين) يفكّر في هذا الوقت إلا في الطريقة التي يتوسّل بها إلى الفرار. كانت كلُّ جارحة من جوارحه منتبهةً يقظة. وكانت كلُّ

عضلة من عضلات جسمه متحفّزةً حذرة. وما شعر في يومٍ من الأيام بالحياة تتدفق في عروقه مثلما شعر بها اليوم وهو يواجه الموت. ولو أن إنسانًا رآه في هذه اللحظة لاستحالَ عليه أن يتصوّر أن هذه الحياة الدافقة الفياضة.. هذه الحياة الصاخبة العاتية.. ستخمُدُ بعد لحظات قليلة!

ودفع (ماكس) بابَ الحديقة الذي لم يكن موصدًا، ودخل يتبعه أسيرُه وخلفه (جو). ولقد خطرَ لـ(لوبين) أن ينقضَّ على أحد الرجلين محاولًا أن ينتزع منه المسدس، ولكنه لم يكن يجهلُ خطورة هذه الفعلة إذْ سيبادره الثاني بطلقة تُرْديه قتيلًا قبل أن يفرَغَ من خصمه.

أدار (لوبين) عينيه في الحديقة الصغيرة وقال:

- أهذه نهاية المرحلة؟

فقال (ماكس) في اقتضاب:

ـــ ونهاية الحياة أيضًا!

فقال (لوبين) في هدوء:

ـــ حياة من؟ أنا أم أنتما؟

فنظر إليه (ماكس) في دهشة وقال:

- امزح كيف شئت.. فبعد قليل لن تقوى على المزاح.

وجعل (لوبين) يستعيدُ إلى ذاكرته مآزق قديمة من هذا القبيل.. كم من مرة وقع فيها في أيدي خصومه وأعدائه، ثم استطاع أن ينجو.. فهل كُتبت له النجاة في هذه المرة أيضًا؟

لم يكن في نيَّته أن يسلم نفسَه لقمةً سائغة لأعدائه، بل كان ينوي أن يجاهدَ في سبيل الحياة. كان ينوي أن يضرب الضربةَ الأخيرة فإذا أخفقت فلن يخسر شيئًا.

وارتسمت على شفتيه ابتسامتُه القديمة.. ابتسامة التحدي والنضال والاستخفاف بالمخاطر والأهوال، ثم التفت إلى صاحبيْه وقال:

– لقد كنت طولَ حياتي أتلهَّف إلى معرفة الطريقة التي تتخلص بها العصابات الأمريكية من أعدائها. ومِن حسن حظي أنكما ستشفيان غليلي!

فضحك (ماكس) وقال:

– ثقْ أنَّنا سنشفي غليلك حتى اللّحظة الأخيرة من حياتك.

– ولكن أرجوك يا (ماكس) أن تحوطني وأنت تقتلني بكلِّ التقاليد والمراسيم المرعية، وإلّا متُّ حزينًا!

أومأ (ماكس) بمسدسه إلى شجرة قريبة، وهو يقول:

– قف عند هذه الشجرة؛ إنها أصلح الأمكنة.

وقد نطق (ماكس) بهذه الجملة بنفس الطريقة التي كان جديرًا بأن ينطق بها لو أنه كان في نيَّته أن يلتقط صورةً لـ (أرسين لوبين).

تفرّس فيه (لوبين) برهة، ثم مشى إلى الشجرة المقصودة، إذ لم يكن في وسعه إلا الرضوخ.. فما يستطيع المرءُ أن يعصي أمرًا لمسدسَيْن مصوَّبَين إلى صدره.

وقف (ماكس) في وسط الحديقة، وأشار إلى مساعده (جو) قائلًا:

- لا بدّ من التفتيش؛ لأن لبعض الناس ولعًا بلبس دروع من الصلب تحت ثيابهم الداخلية.

أخذَ (جو) يفكُّ أزرار (لوبين) ويعري صدرَه.

رفع (لوبين) يديه متظاهرًا بمساعدته في فك الأزرار، ولكنّ يدَه اليمنى استقرت على فكِّ (جو) في لكمةٍ عنيفة لو أنها أصابت ثورًا لصرعته. وفي نفس الوقت قبض بيسراه على يدِ (جو) الممسكة بالمسدس، وأزاحها بعيدًا عن جسمه حتى لا يصيبه الطلقُ الناري إذا ما ضغط (جو) الزناد دفاعًا عن نفسه. وفعلًا طاشت الرصاصة عن هدفها، واستقرت في إحدى الأشجار!

وفي اللحظة التالية، كان (لوبين) قد ألقى بذراعيه حول عنق (جو) يضغطهُ بشدة، وقد اجتذبه إليه، وضمَّه إلى صدره؛ ليتخذَ من بدنه

درعًا حيًّا يحميه من رصاصات (ماكس).

وقد فوجئ (ماكس) بهذا الحادث غير المنتظر، فرفع مسدسَه ليطلق النار على (لوبين) ولكنه أدركَ أنّ رصاصاته- وهو في هذا الموقف- لن تصيبَ إلا زميله (جو)؛ فوثب بضعَ خطوات منتقلًا إلى ركن آخر من الحديقة حتى إذا رأى الهدف مكشوفًا رفع مسدسَه وضغط الزناد.

وقبل أن تنطلق الرصاصةُ كان (لوبين) قد احتمى بالدرع البشري.

ورآه (لوبين) وهو يضغط الزناد فانحرف قليلًا ليتفادى الرصاصة المسدَّدَة إليه..

ولكنه أخطأ الحساب فشعر بألم حادٍّ يصيبه في كتفه، وعرف أنَّ رصاصة (ماكس) قد استقرت في بدنه.

وضغطَ (ماكس) الزناد للمرة الثانية، ولكن (لوبين) كان على تمام الأُهْبَة في هذه المرة؛ فلم تصبْهُ الرصاصة، وإنما أصابت درعَه البشري!

تراخت يدا (جو)، وأفلتت أصابعُه المسدسَ فسقط على الأرض.

ولم يكنْ في وسع (لوبين) أن ينحني ليلتقطه.. وإلا كشف نفسه وعرَّضَ رأسه وجنْبَه لمسدس (ماكس).

صاح (ماكس) قائلًا: الويل لك! إنك لن تنجو من يدنا!

ثم رفع عقيرته ينادي سائقَ السيارة قائلًا:

- (هانك)! تعال أيها المجنون.. أين أنت؟

ذكر (لوبين) السائقَ الذي كان واقفًا في الخارج عند باب الحديقة مهتمًّا بتنظيف سيارته. وعرف أنّ أمله في النجاة ضعُف؛ فقد يكون من السهل أن يقاوم عدوًّا واحدًا محتميًا بجثة (جو)، أمّا أن يقاوم عدوَّيْن يتلقاه هذا من اليمين وذاك من اليسار؛ فأمرٌ يقرب من حدِّ الاستحالة.

ولكنّ السائق لم يجب النداء، فراح (ماكس) ثانية قائلًا:

- (هانك)..! أين أنت؟

وفي تلك اللحظة فُتح باب الحديقة وظهر عند عتبته شبحٌ يمشي في خطوات رشيقة، وتكلم الشبح قائلًا:

- الرفيقُ الكبير يأمرك يا (ماكس) بأن تنتظر!

لم يكد (ماكس) يسمع هذه الجملةَ حتى اتسعت حدقتاه دهشةً، وتراخَى فكُّه ذهولًا! ولكن الشيء الوحيد الذي لبث ثابتًا في مكانه إنما هو ذلك المسدس المصوَّب إلى ناحية (لوبين).

صاح (ماكس) دون أن يلتفت خلفه:

ـــ ما هذا...!

فأجابته (فاي ادواردس) قائلة:

ــ إنه أمرُ الرفيق الكبير.

أمَّا (لوبين) فقد شعر وهو يستمع إلى هذه الكلمات بأنه خرجَ من الموت إلى الحياة. وتضاعف أملُه في النجاة؛ إذ كان تدخّل الفتاة في هذه اللحظة كفيلًا بأن يهيئ له من الوقت فسحةً يلتمس فيها مخرجًا.

وقال (ماكس) يسألها في صوتٍ بارد:

ــ ولكن كيف جئت؟!

فأجابته في صوتٍ أشد برودًا: جئت ماشية.. ألم تسمعْ ما قلت لك!؟ إنّ الرفيق الكبير يأمرك بأن تتركه.

فقال (ماكس) في لهجةٍ تدل على الاستغراب:

- ولكنه قتل (جو)!

- فليكن.. إنّ أمرَ الرفيق الكبير يجب أن ينفَّذ.

نطقت الفتاةُ بهذه الجملة في نبرةٍ تنمُّ على أنها لا تعبأ سواء قتل (جو) أم حشرات مثله.

كان (لوبين) يعرف أنّ مسدس (جو) لا يزال على الأرض على قيْد خطوتين منه، ولكن كيف السبيلُ إليه وهو لو تقدّم خطوة واحدة وانحنى

لالتقاطه لَفَتَ إليه الأنظارَ، ولكَشَفَ من جسمه هدفًا لمسدس (ماكس).

ولكنه كان في حاجةٍ إلى هذا المسدس، وكان لا بدّ له أن يحتال على الوصول إليه، فأخذ يتزحزح من مكانه تدريجيًّا بوصةً بعد بوصة في حركةٍ غير ملحوظة مقتربًا من الموضع الذي كان المسدس يلتمعُ فيه مغتنمًا فرصة انهماك (ماكس) في التحدّث إلى الفتاة.

ولّما ملكَ (ماكس) روعه، وزالت عنه دهشةُ المفاجأة، قال يسأل الفتاة في خشونة:

– وما الذي يريد الرفيقُ الكبير أن نفعله به؟ هل يريد أن نقبّله؟!

– الرفيقُ الكبير يأمرك بأن تتركه.

لم تكن المسافةُ التي تفصل (لوبين) عن المسدس إذ ذاك لتزيد على ١٥ سم، فحرك قدمه حتى لمست المسدسَ ليتأكد من أنّ بصرَه لم يخدعه، ثم تهيأ للحركة النهائية. فلس عليه الآن إلا أن يترك جثةَ (جو).. وفي الوقت نفسه ينحني على الأرض ويختطف المسدسَ في اللحظة التي يرى فيها أنّ (ماكس) حوّل بصره عنه.

وقال (ماكس) في نبرةٍ فيّاضة بالغضب:

– كيف أتركه وقد قتل زملاءنا وأصدقاءنا!! كلا يا (فاي).. قولي للرفيق الكبير إنك وصلت بعد فوات الوقت.. قولي له إنك وصلتِ

فوجدت أننا أجهزنا عليه. محالٌ أن أخلي سبيلَ هذا الشيطان المجنون!

ورفع (ماكس) مسدسَه مستعدًّا لإطلاق النار على (أرسين لوبين) فصاحت به الفتاة: لا تكن مجنونًا!

وتعلقت بذراعه، وجذبت يده إلى أسفل.

وكانت هذه هي الفرصة التي ينشدها (لوبين) فانحنى على الأرض في سرعة البرق، واختطف مسدسَ (جو)، واعتدل واقفًا وهو يقول:

- ما وصيتك الأخيرة يا (ماكس)؟

لقد أقسم (لوبين) أن ينفّذ القانون، وأن يجرّد قلبه من الرحمة، وضغط الزنادَ بأصبعه فصرخَ (ماكس) ثم ترنَّح وسقط على الأرض جثةً هامدة دون أن يتمكّن من إطلاق رصاصة واحدة من مسدسه؛ لأن الفتاة كانت لا تزال متعلقة بذراعه على الرغم من محاولته التملُّصَ منها.

نظر (لوبين) إلى الجثتيْن المطروحتيْن على الأرض، وخالجه شعورٌ بالندم فما كان في نيَّته أن يقتل أحدًا من هؤلاء الزعانف وهو لا ينشدُ إلا الرؤوسَ الكبيرة، أمّا الفتاة فكانت جامدةً في مكانها تتأملُ الجثَّتين دون أن يتراءى في ملامحها ذرةٌ واحدة من الندم أو الخوف.

ذكَّره موقفُها بتلك الليلة التي قتل فيها (موري والينو).. بل ذكَّره

بما كان منها منذ ساعة أو ساعتين حين صدر الأمرُ بإعدامه. إنها هي دائمًا بعينها لا تتغير ولا تتحول.. نفس الجمود ونفس قلة الاكتراث، كأنها قطعةٌ من الصخر، وكأن لها قلبًا لا يشعر ولا يحس.

اقترب منها (لوبين) ونظرَ إلى عينيها.. ولكنَّ عينيها كانتا جامدتيْن لا توحيان بشيء.

ولم تتكلّم الفتاة، ولم يكن (لوبين) ليدري ما ينبغي أنْ يصنع إذْ كان الموقف غريبًا شاذًّا.

أحنى رأسَه في إيماءةٍ خفيفة، وهمس قائلًا:

- شكرًا لك.

وكانت عيناها جامدتيْن صامتتين.

تكلّمت الفتاة قائلة: أهذا كلُّ شيء؟

وحين سمع صوتها الموسيقي سرَتْ في بدنه تلكَ النشوة الجارفة التي ما إن سمعَ صوتها حتى تدفّقت في أوصاله.

حرك (لوبين) يديه بشكلٍ يدل على الارتباك، وقال:

- هذه هي المرة الثانية التي تنقذين فيها حياتي.. ولست أدري السببَ؛ فهل هناك شيء تريدينه؟!

فقاطعته الفتاة بقولها:

ــ هناك هذا...

وعلى حين غفلة، وقبل أن يدري (لوبين) بما صنعت الفتاة، كانت قد ألقت بذراعيها حول عنقه، وفاح من شعرها عبيرٌ مسكر، طغى على حواسّه، حتى لقد خُيّل إليه أنه في حلمٍ لا في يقظة.

حملقَ (لوبين) إلى وجهها دهشًا، وتمتَمَ قائلًا: إني آسف.

فتباعدت عنه الفتاة، وتراجعت خطوة إلى الوراء، ثم أمسكت بذراعيه في رفق، وهي تقول: دعني أرى جرحَك.

ونزعت عنه جاكتته، وضمَّدت الجرح الذي في كتفه بمنديلها ومنديلِه. ثم قالت له:

ــ هيا بنا إلى السيارة.

فقال يسألها:

ــ ولكن أين السائق؟

فكان جوابها:

ــ لقد قتلته!

وحين خرج (لوبين) من باب الحديقة، وجد السائق جثةً هامدة

عند سيارته، وبين كتفيه خنجرٌ غارق بين أضلاعه، حتى المقبض فعرف السرَّ في أن (هانك) لم يجبْ حين صاح (ماكس) يناديه.

ولم ينظرْ (لوبين) إلى وجه الفتاة إذ كان موقنًا من أن وجهَها يكتسي نفسَ القناع الصخري الذي يهزأ بالحياة وبالموت على السواء. تلك الفتاة الذي لم يرتفع عن وجْهها إلا في تلك اللحظة الخاطفة التي طوَّقته فيها بذراعيها.

تولَّتْ (فاي) قيادةَ السيارة وهي تقول:

– سأذهب بك إلى طبيبٍ أعرفه في حي باسك.

– شكرًا لك.

ولّما خرجا إلى الطريق العام، لم يرَ (لوبين) السيارة التي كان يتوقّع أن تكون الفتاة قد جاءت فيها، فقال يسألها: ولكن.. كيف جئت؟!

– اختبأتُ في الحقيبة الخلفية عندما كانت السيارةُ واقفةً بباب المقهى.

وكانت الرصاصةُ التي أصابت (لوبين) في كتفه قد جعلت قدرًا كبيرًا من الدماء ينزفُ من جرحه فظلَّ طول الطريق صامتًا لا يتكلم، وقد أدركه الإعياء.

ولما بلغا عيادةَ الطبيب قال لها (لوبين):

– يحسن بكِ أن تنتظري في السيارة حتى أرجع إليكِ، وإلا وشَى بك الطبيب إلى زملائك إذا كان ذا صلةٍ بالعصابة.

– كلا.. إنه ليس متصلًا بالعصابة.

وكان الطبيبُ خبيرًا بمهنته، وخبيرًا بالمرضى الذين يعالجهم.

فما وجّه إلى (لوبين) سؤالًا واحدًا عن السبب في إصابته، وما سأله عن اسمه، وما قال إن واجبَه يقضي عليه بأن يخطر البوليس!

ولما فرغ الطبيبُ من تضْميدِ جرح المصاب، وأخرج الرصاصة التي كانت مستقرَّة في كتفه قال:

– ألف دولار مِن فضلك!

كانت القيمةُ كبيرةً كأجرٍ لعملية جراحية من هذا النوع، ولكنها كانت مناسبة كأجر للكتمان وعدم الفضول، وبحث (لوبين) في جيوبه فذكرَ أنه لا يحمل مالًا إذْ جرَّدَته العصابة من محفظته، فقال:

– إني لا أحمل مالًا؛ فهل ترجئني إلى الغد؟

– بلا شك.. إلى الغد إذًا. ولكن أرجوك أن ترسل المبلغَ أوراقًا مالية صغيرة.

وشيَّع (لوبين) والفتاةَ إلى الباب.

جلست الفتاةُ إلى عجلة القيادة، وقالت تسأل (لوبين):

– إلى أين أذهبُ بك؟

– إلى نيويورك.

وكان تضميدُ الجرح قد أفاده، وردّت إليه الكأس التي قدمها إليه الطبيبُ بعضَ قوته التي فقدها فأردف قائلًا:

– نعم.. يجب أن نعودَ إلى نيويورك؛ فإن مهمة الليلة لم تنته بعد.

– ولكني أراك في حالةٍ لا تصلح معها للعمل الليلة.

فهزَّ رأسَه في إصرار، وقال:

ــ إني أكرهُ الراحة.

وحدجته الفتاةُ بنظرةٍ فاحصة، وقالت:

– ما الذي جاءَ بك إلى هذه البلاد؟

فأخرج (لوبين) بطاقةً صغيرة من جيبه، وضعها تحت بصر الفتاة، وهو يقول: جئت إلى هذه البلاد لأقتل ستةَ رجال. وقد قتلت ثلاثةً منهم حتى الآن:

ــ (جاك أربول) و (موري والينو) و (ايدي فولسانج). فلم يبق إلا ثلاثة.

فقالت الفتاةُ وهي تنظر في البطاقة:

– بل لم يبق إلا اثنان لأن (جانسون) هو نفسه (هانك) سائقُ السيارة. إنه يدعى (هانك جانسون)، ويظهر أن الدورَ الآن على (داتش كيلمان).

فحدجها (لوبين) بنظرة فاحصة، وهو يقول:

– إن (كيلمان) صديق لك! فهل تنوين أن تشي بي؟

فهزَّت رأسَها، وقالت:

– ليس لي أصدقاء. سأذهب بك إليه الآن، فإذا رأيتَه خارجًا من المقهى فتقدّم إليه.

فابتسم (لوبين) وقال:

– وسأؤدّي التحيةَ العسكرية اللائقة بمقامه العظيم!

كان (لوبين) يعتقدُ في إخلاصها، وفي أنها ستمهدُ له السبيلَ لكي ينال (كيلمان)، إذ ليس معقولًا أن يكون في نيّتها استدراجُه إلى فخّ ينصب له، وقد كان في وسعها أن تترك (ماكس) يقتله إذْ ما معنى أن تنقذَه منذ لحظاتٍ لتقوده إلى حتفه في اللحظة التالية!؟

وفي اللحظة التي كانت فيها (فاي) منطلقةً بالسيارة إلى مقهى

(شارلي)، كان (داتش كيلمان) يقول لأعوانه: حسبي ما انتظرت. فإذا جاء (جو) و(ماكس) فأرسلوهما إليّ في داري.

ونهض (كيلمان) واقفًا، فنهض في أثره الحارسان اللّذان يتولّيان حمايته والدفاع عنه ضد اعتداء العصابات المنافسة.

ولبثَ (كيلمان) في داخل المقهى على مقربةٍ من الباب، على حين خرج الحارسان إلى الطريق ينظران يمنةً ويسرة ليتأكّدا من (نظافة) الطريق.

قال أحدُ الحارسيْن يخاطب مولاه:

– الطريق (نظيف) فتفضّل.

وخرج (داتش كيلمان) إلى الإفريز، وهمَّ بالصعود إلى سيارته.

وفي تلك اللحظة، لاحت سيارةٌ تقترب من المكان، فلما نظر إليها (كيلمان) قال يخاطب الحارسيْن:

– ها هي ذي سيارة (ماكس) و (جو). لقد جاءا في الوقت المناسب.

ولبث واقفًا على الإفريز ينتظر دنوَّ السيارة.

ولما صارت على قيدِ خطوة واحدة منه، رأى في نافذتها شبحًا.

وكان الوقتُ أضيق من أن يتَّسعَ للتقهقر والفرار.

لقد رأى في النافذة شبحَ الرجل الذي أرسله إلى حتفِهِ منذ ثلاث

ساعات. كان وجهه شاحبًا ممتقعًا، ولكنّ عينيه كانتا ترسلان وميضًا مخيفًا!

ودوَّى في سكون الليل طلقٌ ناري.. وقبل أن يبلغ (داتش كيلمان) الأرضَ كانت السيارة قد ابتعدت، وهي تنهب الأرض صوبَ الشرق!

بينما كان رجالُ البوليس يغْدُون ويروحون حول مقهى شارلي في حيرة وارتباك لا يدرون ما يصنعون، كانت (فاي ادواردس) قد أمعنت في الابتعادِ حتى إذا بلغت حديقة سنترال بارك أوقفت سيارتَها هناك. ذكر (لوبين) فجأةً ليلة جاء فيها إلى نفس المكان، ولكن في سيارة أخرى يقودها المفتشُ (فرساك).

لم تمض على هذا اللقاء ستٌّ وثلاثون ساعة، ومع ذلك فقد وقعت في خلالها حوادثُ جسيمة. وراح (لوبين) يسائل نفسَه عمَّا يجول في خاطر (فرساك) في تلك اللحظة، وهو يرى هذا البركان الثائر الذي يجتاح العالم السفلي.. هذه العاصفة العاتية التي أخذت تكتسحُ الأرض فلا تُبقي ولا تذر. من المحتمل أن يكون (فرساك) في هذه اللحظة منطلقًا في أرجاء المدينة منقّبًا في أركانها عن (لوبين) ليرضِي باقتناصه أولئك السياسيّين الذين يقبضون على زمام الحكم في البلاد، والذين يروْن في بقائه حيًّا خطرًا جسيمًا على مقاعدهم في المجالس النيابية. فلو أنه قُدر لهما أن يلتقيا مرة أخرى لما كان حديثُهما كسابقه وديًّا مشربًا

بروح العطف.

أشعلت (فاي ادواردس) سيجارتها، ورأى (لوبين) وجهَها على ومضةِ الكبريت كالعهد به دائمًا جامدًا كأنه وجهُ تمثال من الشمع. ولم يكن في عينيها خوفٌ أو اضطراب، فقال في نفسه: ليت شعري أيمكن أن تكونَ هذه الفتاة قد قتلت رجلًا منذ ساعة، وعاونتني على قتل رجل آخر؟

التفتت إليه (فاي)، وقالت:

– إن اسْمي مدرَجٌ في قائمتك، فهل تراني ارتكبت إثمًا؟ لا شك أنك تروم مني أمرًا فما الذي تبغيه؟ ها أنا ذا أمامك.

فابتسمَ (لوبين)، وقال:

– إني ما كتبت اسْمك إلا فضولًا مني.. إنك عندي بمثابة لغزٍ غامض، كنت أسترق السمعَ وأنت تتحدثين تليفونيًّا مع القاضي (ناتير)، فكانت هذه أول مرة سمعت فيها صوتَك، وكنت أرقبك وأتأمَّل وجهَك وأنت جالسة مع (موري والينو).

ولقد أعطيتني المسدسَ الذي استعنت به على الفرار من مقرِّ العصابة، فأردت أن أعرفَ مَن أنت؟ وماذا كنت؟ ما ماضيك وحاضرك؟ ما الذي دعاك إلى الاندماج في العصابة؟ إني رجلٌ فضولي

كما ترين.

فهزَّت كتفيها، وقالت: والآن قد عرفت الجواب بالتأكيد؟

– أتعتقدين ذلك؟

وما انفرجت شفتا (لوبين) عن هذه الجملة حتى أدركه الندم، وعرفَ أن لسانه قد هفا. إذ تحوّلت إليه الفتاة، ونظرت في عينيه فأسرع يقول: عندما ذكرت لـ (ماكس) أنّ الرفيق الكبير يأمره بأن يطلق سراحي لم يكن هذا صحيحًا.

– وما الذي جعلك تظنُّ هذا؟

– مجرد تخمين.. ولكنني موقنٌ مما أقول.

نفثت الفتاةُ مِن فمها سحابةً كثيفة من الدخان، وقالت:

– نعم. لم يكن صحيحًا، إنّ الرفيق الكبير مدرج في قائمتك، فهل تريد أن تظفر به أيضًا؟

– بل أكثر مِن سواه.

– إنك عنيدٌ قوي الإرادة.

– إني أريد أن أكتب الفصلَ الختامي في هذه الرواية..

ساد الصمتُ برهة، ومضت الفتاة تدخّن وهي غارقة في خواطرها،

و(لوبين) يرقبها ويتفرس في وجهِها، وهو يسأل نفسَه عما يدعوها إلى الاندماج في هذه البيئات الغارقة في الجثث والدماء!.. وأولى بمن كانت على مثل جمالها أنْ تكون الآن في مخدعها تتجمّل وتتزيّن وتصغي إلى مناجاة العشاق. ولكنها- فيما يلوح- مِن طرازٍ يفهم الموت أكثرَ مما يفهم الحب! وتكلمت الفتاة قائلة:

- أظنّ أن في وسعي أن أرشدك إلى الرفيق الكبير.

وكان صوتها هادئًا يدلّ على قلة الاكتراث، كأنما تتحدّث عن شيء غير ذي بال.

وقال (لوبين) يسألها:

ــ ولكنك تعرفينه.. أليس كذلك؟!

- إني الشخص الوحيد الذي يعرفه.

- إنه لغز عظيم.. أليس كذلك؟ !كم مضى على معرفتك إياه؟

- قابلته منذ ثلاث سنوات قبل أن يصبح (الرفيق الكبير)، بل قبل أن يسمعَ به إنسان. لقد انتشلني من وهدة الحياة، وأنقذني مما كنت أكابدُ من الفقر والفاقة. لقد حدثني بفكرته فراقت لي إذْ كانت فكرةً سديدة مدهشة، واستطعت أن أمدَّ إليه يدَ المعونة بأن جمعت حوله أفرادَ العصابة ولكنهم لم يتصلوا به مباشرة، وإنما عن طريقي.. وهكذا

كنت حلقةَ الاتصال بينه وبينهم حتى الليلة.

– أتقصدين أنك اعتزلت العمل؟

– لا.. كلُّ ما هنالك أني غيَّرت رأيي.

ساد الصمتُ برهة، ثم قال (لوبين): لا شك أنه رجلٌ عظيم!

– إنه عظيم.. عندما بدأ يعمل كنت أعتقدُ أنه لن يستمر أكثرَ من أسبوع واحد على الرغم من سدادِ فكرته، فإن الفكرة السليمة ليست كلّ شيء في مهنتنا هذه.. لا بدَّ للزعيم من أن يكون ذا شخصية جارفة قوية، والرفيقُ الكبير مجرَّدٌ من الشخصية، ولاشك أنه يعرف ذلك عن نفسه. ولعل هذا هو ما دعاه إلى الاختفاء والتستُّر مكتفيًا بمخاطبة عصابته عن طريقي، بل إنه لم يفكر يومًا في أن يخاطب العصابةَ بنفسه تليفونيًّا.. إنه رجلٌ جبار في أحلامه، ضئيلٌ، منكمشٌ في الحياة، لو أنهم رأوه لاحتقروه وازدروه؛ فكانت حكمةً منه أنه اختفى جاعلًا مني حلقة للاتصال متّخذًا لنفسه لقب الرفيق الكبير.

عادل (لوبين) يسألها بقوله:

– ألم يحاول أحدٌ من رجال العصابة أن يكتشف شخصيته؟

– لقد تعدَّدت المحاولات التي مِن هذا القبيل، ولكنها باءت كلُّها بالخسران. لقد أقدم (موري والينو) على هذه المحاولة.. وكذلك فعل

(كيلمان). وما تركا حيلةً إلا عمدَا إليها.. ولكنهما لم يظفرا بشيء، وله في دفع أجور أفراد العصابة طريقةٌ ملتوية لا تمكّن أحدًا من معرفته.

وعلى الرغم من أن جزءًا كبيرًا من أموال الفدية والإتاوات المختلفة التي تدفع لأعوانه؛ على الرغم من أنها أوراق مالية كبيرة يمكن تتبّعها إلا أنه ظلّ مع عصابته بعيدًا عن الريب والشبهات. نعم إنه ذكي حريص.

ولم يكن هناك ما يدعو إلى الغرابة فيما ذكرتْهُ الفتاةُ؛ فقد يكون الرجل جبارًا إذا خلا بنفسه، ضعيفًا إذا ما واجه الجماهير. والرفيق الكبير من هذا الطراز، يستطيعُ أن يدير ويحرك العصابة، ولكن وراء ستار.. إنه رجلٌ لا شخصية له.

ولكنّ السؤال الذي كان لا يزال يتردَّد في ذهنه، وأبى (ماكس) أن يجيب عنه هو: كيف بدأ الرفيق الكبير عمله؟

ابتسمت الفتاة وقالت:

- بمائة ألف دولار. كان هذا هو رأسَ ماله. لقد أوفدني إلى (موري والينو) لأنبئه بأنه- أي الرفيق الكبير- يريد أن يختطف رجلًا معينًا لقاء خمسين ألف دولار. اغتبط (والينو) لهذا الأجر الضخم؛ لأنّ العصابة ما كانت لترفض القيامَ بهذا العمل لو أنها نقدت عشرة ألاف دولار.. وزوّد الرفيق الكبير (والينو) بالمعلوماتِ التي لا بدّ منها ليتم

الاختطاف دون أن تتعرّضَ العصابة لأي خطر.

وكانت هذه المعلوماتُ من الدقة والإحكام بحيث تم اختطافُ الرجل في الساعة المحددة دون أن يُسْتهدف أحدٌ لأي نوع من أنواع الخطر.

واضطر الرجل أن يفتدي نفسه بمبلغٍ دفعه إلى (والينو)، ولكنه (والينو) كان يعرف أنّ نجاح هذه الخطة إنّما استندَ إلى المعلومات التي زوَّدهم بها الرفيق الكبير. وكذلك اتصلَ الرفيق الكبير عن طريقي بـ (داتش كيلمان)، وعهد إليه باختطاف رجلٍ آخر لقاءَ نفس الأجر. وتم هذا الحادث أيضًا بنفس النجاح الذي تمَّ به سابقه. فلم يكن أسهل إذْ ذاك من أنْ يجمع الرفيق الكبير تحت ظله (والينو) وعصابته و(كيلمان) وعصابته، فألَّف من بينهما عصابة واحدة تأتمرُ بأمره، وتنفّذ ما يشير به دون تردد ودون أن يفكر أحدٌ منهم في الانفراد بنفسه، وهم يعلمون أن نجاحهم متوقفٌ على المعلومات الدقيقة التي يزوّدهم بها الرفيق الكبير. ومن هذا ترى كيف استهلَّ حياته، ورجالُ العصابات كما تعلم قد يكونون مفطورين على الجرأة، ولكنهم ليسوا مفطورين على الذكاء.. قد يستطيع الواحدُ منهم أن ينطلق في الطريق ومسدسُه في يده يقذف بالنيران يمنةً ويسرة دون أن يهاب شيئًا، ولكنه لا يستطيع لحظةً واحدة أن يفكّر، أو أن يضع خطةً سديدة؛ فكانت مهمةُ رجال

العصابات أن يطلقوا النار، أمَّا مهمة الرفيق الكبير فكانت أنْ ينبئهم عن الساعة التي يطلقون فيها النار، والمكانِ الذي تُطلق فيه.

وهكذا عرف (لوبين) جوابَ السؤال الذي ينشده.. السر الذي جهل رجال العصابات يخضعون للرفيق الكبير، ولا يفكرون في الغدر به.

قال (لوبين) يسألها: وعلى هذا المنوال استمرَّ العمل؟

– نعم، ولكن مع فرقٍ ضئيل.. لو أنَّ الرفيق الكبير استمرَّ يستأجر (والينو) و(كيلمان) وعصابتهما للقيام بأعمالٍ فردية من هذا القبيل لقاءَ أجر معين لارتفعَ هذا الأجر تدريجيًّا إلى درجة يستحيل معها مواصلة العمل.. فرأى أنْ يعدلَ عن خطة الاستئجار إلى خطة أخرى قائمة على أساس اقتصادي.. لماذا لا يجعلهم شركاء له؟ وهذا هو ما حدث فعلًا.. لقد اتَّفق مع زعيمي العصابتين على أن ينقدهما مرتبًا شهريًّا ثابتًا للإنفاق منه وسدِّ الحاجات الضرورية. أمَّا ما بقي من مبالغ الفدية فيودع بنكًا معينة حتى إذا انقضت ثلاثُ سنوات وزعّ الرصيد بالتساوي بين الأفراد. لقد كان عددُهم سبعة قبل حضورك، أمّا الآن فلم يبقَ منهم إلا اثنان، وهذا معناه أنّ الرفيق الكبير وصاحبه (كيرلي ايبولين) سيقتسمان الرصيدَ معًا على قدم المساواة؛ فموت هؤلاء الأفراد كان نعمةً كبيرة على الرفيق الكبير وصاحبه اللّذين لا يزالا على

قيد الحياة لأنهما سيصبحان الوريثيْن الوحيدين للفِدْيات المتراكمة التي بلغت عشرين مليونًا من الدولارات.

فابتسم (لوبين) وقال: هذا إذا بقيا على قيد الحياة. ولكن أين (كيرلي ايبولينو)؟ إني لم أعثرْ عليه بعد.

– لقد سمعت أنه في بتسبرج، ولست أدري الحقيقة.

وابتسم (لوبين) وقال في نفسه: يا لسخرية الأقدار! لقد جئت هذه البلاد لأقضي على الرفيق الكبير فإذا بي أخدمه عن غير قصدٍ بتخليصه من شركائه في الميراث..! ليت شعري هل خطر ببال (فالكروس) وهو يستنجدُ بي أني سأخدمُ بعملي غرضيْن متناقضين: العدالة.. والجريمة!

التفتت (فاي ادواردس) إلى (لوبين) وقالت:

– أتريد أن تعرف شيئًا آخر؟

– بل أشياء كثيرة.. يمكنك أن تقولي لي مَن هو الرفيق الكبير.

فهزّت رأسها وقالت: لا يمكنني.

– ولكنك قلت إنك سترشدينني إليه.

– بل قلت إني (أظن) أن في وسعي أن أرشدك إليه؛ إني لا أزال مترددة.. لقد وعدتُه بأن أكتم اسْمَه عن كل إنسان.

أشعل (لوبين) سيجارةً، جذب منها بضعةَ أنفاس، ثم قال:

– لنفرض أني قابلتك صدفةً وأنت مع الرفيق الكبير، فاستنتجت أنَّ هذا هو صاحبي المنشود دون أن ترشديني أنت إلى ذلك؛ فهو يثورُ عليك ضميرك؟

– لا بالتأكيد.. لقد وعدته ألا أشِي باسمه، وهذا كلُّ ما هناك.

– شكرًا لك. إني راض إذًا بأن ترشديني إلى مكانٍ يتردد عليه الرفيقُ الكبير.. وليكن في هذا المكان مائة شخص أو ألف؛ فإني لن أعجز عن تمييزه مِن بينهم.

فأحنَتْ رأسها، وقالت: سأفعل.

ثم ألقت بسيجارتها من نافذة السيارة، وقالت في صوتٍ هادئ ثابت: لقد سمعت عنك فورَ وصولك، وكنت أتمنى أن أراك، فلما رأيتك لم أعدْ أعبأ بشيء في الدنيا.. أصبحت أنت في عيني الدنيا بأسرها. لقد انتظرتك طولَ حياتي، فهل أتخلى عنك، أو أتردد في أمرٍ يتصل بك؟ لقد كانت حياتي جدباء أمّا الآن...

كان (لوبين) في حيرة من أمره، وهو يصغي إلى هذه الكلمات! لم يكن في إمكانه أن يلقي بذراعيه حول عنقها ويجتذبها إلى صدره، وهناك في إنجلترا فتاةٌ أخرى تنتظر عودته بفارغ صبرٍ.. ولم يكن في

إمكانه أيضًا أنْ يقول لها إنه ليس خلي القلب.

ولكنها لم تكن تنتظر منه جوابًا.. كانت كأنما تخاطب نفسَها بهذه الكلمات، فما انفرجت عنها شفتاها حتى انطلقت ثانيةً بالسيارة، وهي تقول مغيِّرَة مجرى الحديث:

– إنّ الرفيق الكبير معجب بك أشدَّ الإعجاب.. ولشَدَّ ما كان يتمنى أن يضمّك إلى رجاله.. ولكنه كان يعلم أنّ العصابة ناقمةٌ عليه لفتْكِكَ ببعض أفرادها؛ فأوصاني بأن أترفَّق بك إذا وقعت في أيديهم، وأنْ أحاول أن أحميك وأنقذَك من نقمتهم.. لقد كان يعتقد أنه سيجيء يومٌ يتمكن فيه من أن يضمّك إليه.

أوقفت السيارة في شارع (لكسنجتون)، وهي تقول:

– أين نلتقي؟

– ومتى يكون هذا اللقاء؟

– إني أعتقد أني سآتيك ببعض الأنباء بعد ساعتين أو ثلاث.

ففكر (لوبين) برهة، ثم قال:

– أتعرفين مطعم (كريس بللينى) في الشارع رقم ٤٥؟ قد لا أكون موجودًا هناك، ولكن في وسعك أن تتركي لي مع صاحبِ المطعم أي

رسالة تشائين؛ إنه رجلٌ مأمونُ الجانب.

فوضعت يدَها في رفق على كتفه، وهي تقول: إلى اللقاء إذًا.

رفعت وجهَها إليه.. وفاح في شعرها العطر المسكر، وسرتْ في أوصاله نشوةٌ ثملة، ومال فوقها (لوبين) وقبَّلها..

همست الفتاةُ وهي تقول في صوتٍ رقيق: إلى اللقاء.

مشى (لوبين) إلى الفندق، وهو غارق في خواطره.

كان يفكر في هذه الفتاة الغامضة التي تخلّت عن ماضيها، وأوْلت ظهرها للرفيق الكبير خضوعًا لنداء الحب.

ثم عادَ يذكر الرفيق الكبير. ذلك اللغز الخفي الذي يتستّر بالظلام دون أن يدري أحدٌ من أمره شيئًا. ولكن (لوبين) سيكشف شخصيتَه في تلك الليلة.. فبعد ساعتين أو ثلاث ستحمل إليه أسلاكُ التليفون الرسالةَ التي يتلهف عليها، وعندها تضع الحروبُ أوزارها.

وبينما كان المصعدُ يشق طريقَه إلى الطابق الأخير من فندق استوريا، كان (لوبين) لا يزال غارقًا في هذه الخواطر.

وحين فتح باب المسكن رأى الأنوار مضاءة في جميع الغرف، ولكنه لم يسمع صوت (فالكروس) يحييه كالمعتاد، فقال في نفسه: لا ريب أنه

أقام في انتظاري طويلًا فغلبه النومُ وهو في مقعده.

دفع بابَ قاعة الاستقبال ودخل. وكانت مضاءة أيضًا شأنَ بقية الغرف.

شعر بحركةٍ في ركن القاعة، فظنَّ أن (فالكروس) شعر بقدومه فنهضَ لاستقباله، ولكنه حين التفت رأى أنّ (فالكروس) لم يكن أحدَ الرجلين اللّذين هَبَّا لاستقباله!

رفع (لوبين) يدَه على عجل ليطفئ نورَ القاعة فشعرَ في الحال بوخزةٍ أليمة في ذراعه.. ولأول مرة منذ ثلاثِ ساعات ذكر الرصاصةَ التي أصابت كتفه. لقد جعلت عضلاتِه متصلبةً عاجزة عن سرعة الحركة، فقبل أن تبلغ يدُه الزرَّ الكهربي كان هناك مسدسٌ قد صُوّب إليه. وسمع صوتًا يقول:

ـ إياك أن تتحرك.. وإلا فالويل لك!

الفصلُ الرابع

التفت (لوبين) إلى الرجلين، وقال:

– يا للمفاجأة السعيدة! إني أحبُّ دائمًا أن أستقبلَ أصدقائي على غير انتظار.

ولقد نطق بهذه الجملة في هدوءٍ وقلة اكتراث، ولكن أدهشَه تهدج صوته.

ألقى نظرةً إلى المقعد الكبير الذي اعتادَ أن يرى (بيل فالكروس) جالسًا عليه، وقال:

– ولكن ماذا فعلتم بـ (بيل)؟

فصاح الرجل البدين:

– مَن هو (بيل)؟

فابتسم (لوبين) وقال:

– إني آسف.. لا تهتمَّا بما أقول. (بيل) مجردُ اسْمٍ خيالي، ولكن

لا داعي لأن تذكرا لي اسميْكما.. فأنت بضخامتك لا بدَّ أن تكون (هاردي)، وصاحبك الضئيل الهزيل لا بدّ أن يكون (لوريل)! مرحبًا بكما يا (لوريل) و(هاردي)، لقد رأيت كثيرًا من أفلامكما.

هذا اللقاء فرصةٌ سعيدة.

فتبادل الرجلان نظرةَ غيظ، وقال الذي نعته (لوبين) بأنه (لوريل):

- إنه مجنون. لا بدّ أن يكون مجنونًا!

ولقد سمع (لوبين) عشراتٍ من الناس ينعتونه بالجنون، فكان لا يحفلُ بما يقولون، أمّا الآن ولأول مرة فقد أدرك أنه مجنون حقًّا..

فلو لم يكن مجنونًا لما دخل المسكن دون أن يتَّخذ أية حيطة. لو لم يكن مجنونًا لرابه رؤيةُ الأنوار مضاءة في جميع الغرف.

ولكنه كان مجنونًا.. وكان منهمكًا في التفكير بسبب المقابلة المنتظَرة بينه وبين الرفيق الكبير. وجعل يتأمّل الرجلَ في اهتمام.

وتقدم (هاردي) إلى وسط الغرفة، ودار حول المائدة، وشرع يفتش (لوبين) فجرَّده من مسدسه، ورماه إلى صاحبه، ثم وضع مسدسَه الخاص في جيبه، وهو يقول في صوتٍ أجش:

- والآن ما اسمك؟

فقال (لوبين) في صوتٍ مرح:

– إنهم يسمونني (رودلف فالنتينو) فما اسمك أنت؟

فقطَّب الرجل البدين جبينَه، وقست عيناه وقال مزمجرًا:

– إنك تعرفنا بالتأكيد.

– لم أتشرفْ بعد بمعرفتكما.. لقد خمَّنت أنكما (لوريل) و(هاردي)، ولكن يظهر أني كنت مخطئًا.

– إنني أدعى (كيتري).. وهذا هو البوليس السري (بوناشي)، إننا من رجال البوليس، فهل أنت راض؟

وكان الرّضا أقلَّ ما يمكن أن يُوصَف به شعور (أرسين لوبين) في هذه اللحظة، فما خطر له عند دخوله الغرفة أنّ هذين الرجلين من الشرطة، بل ظنَّ أنهما من رجال العصابة جاءا ليفتكا به.

وكان يتوقّع ما بين لحظة وأخرى أن يرى سيلًا من النار ينهمر من المسدسات ليرديه قتيلًا.

نظر (لوبين) إلى حذائَي الرجلين الضخميْن، وقال:

– لقد خمَّنت هذا؛ إنّ الحذاء الضخم هو بطاقةُ رجال البوليس. إني سعيدٌ بقدومكما فلا شك أنّ رسالتي بلغتكما؟

- أية رسالة؟

- الرسالةُ التي دعوتكما فيها إلى الحضور.

فضاقتْ عينا (كيتري) وقال:

- هل أنتَ صاحب هذه الرسالة؟

- بكل تأكيد.. لقد كنت مشغولًا؛ فعهدت إلى صديق لي بأن يؤديها بالنيابة عني.

فهزَّ الشرطي الضخم رأسه، وقال:

- هذا بديع! ولماذا أردت أن تستدعينا؟

لم يكن (لوبين) في الواقع قد أنفذ إليهما رسالةً كما ادّعى، ولكنه تعمّد أن يقول ذلك ليستدرجهما إلى الحديث حتى يتبيَّن الحقيقة.

ولكن مَن الذي وشَى به، وأرشد البوليس إلى هذا المسكن؟ (فاي ادواردس)؟

ولكنها لا تعرف مخبأه؟

سائقُ السيارة الذي أركبه يوم مصرع (بابيلوس). ولكن كيف عرف السائق المخبـأ وقد حرص (لوبين) على تضليله؟

وعاد (كيتري) يقول مردداً سؤاله:

- لماذا استدعيتنا؟

- لقد ظَنَنْت أنه يهمّكما أن تعرفا نبأ عن الرفيق الكبير.

فقال الشرطي في شيء من الدهشة:

حقًّا!

ثم استحالت دهشتُه غضبًا، وصاح في صوتٍ مدوٍّ كالرعد:

- أيها الكذاب القذر.. هل تهزأ بي؟

لقد قال صاحبُ الرسالة التليفونية:

ــ (إنني الرفيق الكبير.. ستجدون (أرسين لوبين) في الطابق الذي يشغله مستر (فالكروس) في فندق استوريا.. عليكم به فقد ضقت به ذرعًا)

فهزَّ (لوبين) رأسه، وقال:

- لا بدَّ أنه كان سكران.

ولكنه عرف أنّ الذي وشى به هو الرفيق الكبير.. ولكن كيف اهتدى إلى مخبئه؟!

كان (كيتري) يحدّق إلى وجه (لوبين)، فقال بغتة:

- لقد عرفتك.. إنك (أرسين لوبين).

فتمتم (لوبين) قائلًا:

– أهنئك أيها الأخ. إنك دقيقُ الملاحظة، متوقدُ الذكاء.

فلم يرقْ هذا المزاح في نظر الشرطي، واحمرَّ وجهه غضبًا، وصاح قائلًا:

– امزح ما شئت، فبعد قليل سيجيء دوري في المزاح.. أولى بك أن تجيبَ عما تُسْأل عنه في صدقٍ وصراحة قبل أن يستولي عليّ الغضب.

أحنى (لوبين) رأسَـه دون أن يتكلم. كان يفكر في مصيره ومستقبله.. أتكون هذه هي النهاية!؟

أقُضِي عليه بأن يختتمَ حياته بهذه الهزيمة السخيفة؟

لقد نجا عشراتِ المرات من شرطة يعدّون أذكى قوم في العالم، فهل يقع فريسةً سهلة بين أيدي هذين الغبيين!؟

وتكلم (لوبين) قائلًا:

– وما الأسئلة التي تريد أن توجِّهها إلي؟

فصاح (كيتري) قائلًا:

– أين ذلك المدعو (فالكروس)؟

– لا أدري.

وكان (لوبين) صادقًا في هذا الجواب.

وقبل أن يدري ما حدث كان (كيتري) قد رفع قبضتَه الضخمة، وسدَّد إلى فكه لكمةً جعلته يترنح ويصطدم بالجدار خلفه.

صاح (كيتري) للمرة الثانية:

- أين (فالكروس)؟

للمرة الثانية أجاب (لوبين) قائلًا:

- لا أدري!

ولكنه عقَّب بقوله:

لقد رأيته آخرَ مرة في قفص القرود بحديقة الحيوانات متنكّرًا على هيئة رجال البوليس السري!

وللمرة الثانية ارتفعت يدُ (كيتري) ولكمتْ (لوبين)، فاستند المسكين إلى الباب خشيةَ السقوط إذْ كان على غايةٍ من الإعياء بسبب ما نزف من الدماء.

- قلت لك أين (فالكروس)؟

هزَّ (لوبين) رأسه دون أن يتكلَّم لأن سمعَه كان يطنُّ، وعينيه كانت زائغتيْن، وقوته تكاد تخونه. ولكنّ (كيتري) لم يكن يعرف معنًى

للرحمة، فصاح في صوتٍ غاضب قائلًا:

- إذًا فأنت لا تنوي أن تتكلم؟

فقال (لوبين) في كلمات متقطعة:

- إنّ من عادتي الا أتكلم مع القرود.. إذا كنت تعتقدُ أنك باللكمات تصبح شرطيًّا سريًّا فأنت بلا شك أنبغُ رجال الشرطة.

احمرَّت عينا (كيتري) وصاح:

- إني سأعرف كيف أرغمُكَ على الكلام.

ورفع يدَه للمرة الثالثة ولكَمَ (لوبين) في فكه، فترنَّح وأمسك بالمائدة لكيلا يقع على الأرض.

دنا منه (كيتري) وأخذ بتلابيبه، وجعل يهزّه هزًّا عنيفًا. ولأول مرة فطِنَ إلى الدماء التي تلوث ثيابه، وإلى الضمادات المعقودة حول كتفه، فقال في غلظة:

- كيف أصابكَ هذا الجرح؟

- عضَّتني نملة!

أمسك (كيتري) بذراع (لوبين) المصابة ولَوَاها خلف ظهره في عنف. فأحس (لوبين) بألم شديد يسري في بدنه، وشعر كأنما يوشك أن

يفقدَ الوعي، وكان موقنًا أن احْتماله لن يطول، ولكن رجال البوليس الأمريكي ما كانوا ليرحموا إنسانًا حتى ولو رأوه مسجًّى على فراش الموت، إذ لا بدّ من أن ينتزعوا منه الاعترافات باتّباعهم الطريقة التي يطلقون عليها (الدرجة الثالثة).. وهي طريقةٌ تقتضي منهم أن يضربوا المتّهم بهراوة من المطاط، وأن يرغموه على عدم النوم، وأن يلووا ذراعه خلف ظهره ولو كان جريحًا تقطرُ منه الدماء.

وفي تلك اللحظة، دق جرس الباب فقال (كيتري) مخاطبًا زميله:

- انظر من الطارق.

خرج (بوناشي) إلى الردهة، بينما ظل (كيتري) قابضًا على ذراع (لوبين) وهو يلويه خلفَ ظهره منتظرًا دخول القادم.

ولم يكن القادم إلا المفتش (فرساك)!

وقف (فرساك) على عتبة الغرفة، وأزاح قبعته إلى الوراء، وأخذ المكان بنظرةٍ شاملة، ولم يكن في وجهه ما ينُمُّ عن الدهشة أو العجب.

وقال في صوتٍ بارد:

- ما هذا؟

فأجابه (كيتري) في لهجةٍ تدل على الزهو:

– لقد اقتنصنا (أرسين لوبين)، ولكن المدعو (فالكروس) غير موجود الآن. ولكنني سأعرف كيف أرغمُ هذا الأخرس على الكلام. لقد شرعت أجرِّب معه الدرجة الثالثة.

فصاح المفتش (فرساك) في صوتٍ يدوي كالرعد.

– ماذا تقول؟ شرعت تجرّب معه الدرجة الثالثة؟ يا لك من مجنون! مَن علمك أن تفعل هذا هنا؟

فازْدرد (كيتري) ريقه، وقال في ارتباك:

– ولكنه لا يريد أن يتكلّم أيها الرئيس. كان يمزح ويهزأ بنا، كأنّ الأمر هزل لا جدّ. وكنت أريدُ أن أعرف أين ذهب (فالكروس).

فقال (فرساك) متهكمًا:

– وهل هذا هو ما تعلّمته في إدارة البوليس.. يا لها من فكرة بديعة! استمر في عملك يا (كيتري).

يمكنك أن تقلبَ المقاعد والموائد.. يمكنك أن تدقَّ الطبول وتقرع الأجراس.. يمكنك أن توقظَ أهلَ الفندق جميعًا، وأن تستدعي مخبري الصحف حتى يشهدوا كيف يعذبُ البوليسُ المتهمين، يا لك من غبي! أهذا مكانٌ يصلح (للدرجة الثالثة)؟

انكمش (كيتري) الضخم العملاق أمام كلمات رئيسه، وصاح (فرساك) قائلًا:

- دعْ (لوبين) واستدعِ إحدى السيارات، وانتظرني عند الباب حتى أنزل إليك، أمّا أنت يا (بوناشي) فانتظر (فالكروس) هنا حتى يحضر. وكان (لوبين) شديدَ الإعجاب بما لـ (فرساك) من البأس في نظر مرؤوسيه؛ فقد خرج (كيتري) من القاعة وهو يتعثّر في خطواته على حين انزوى (بوناشي) في أحدِ الأركان.

نظر (فرساك) إلى (لوبين) طويلًا، ورأى الدماء العالقة بثوبه، ولكنّ وجهَه كان على عهده جامدًا لا ينمُّ عن شيء كأنه نحتٌ من الجرانيت!

ثم قال فجأة:

- تعال.

أخذ بذراع (لوبين) وقاده إلى المصعد، فهبطا إلى الطابق الأرضي دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

كان (كيتري) في انتظارهما داخل السيارة، فصعدا إليها، وأمر المفتش السائقَ بالمسير.

وبعد فترة من الوقت، وقفت السيارة فخرج منها (فرساك)، وقال:

– انزل هنا.. لقد وصلنا.

كان (لوبين) يتوقّع أن يجدَ نفسَه أمام المركز العام لإدارة البوليس، ولكن (فرساك) التفت إليه وإلى (كيتري)، وقال:

– هذا هو مسكني.

ثم وجَّه حديثه إلى (كيتري) قائلًا:

– يمكنك أن تنصرف يا (كيتري) على أن ترجع إليّ في الصباح، فإنّ لي حديثًا مع (لوبين). طابَ مساؤك.

ثم أخذَ بذراع (لوبين) ثانية، وقاده إلى داخل المنزل تاركًا وراءه (كيتري) مذهولًا يسأل نفسه عن السرّ في هذا السلوك الشاذ الذي ظهرَ به رئيسُه.

وعندما دخل (لوبين) إلى المسكن أدهشه أن يجدَ قاعة الاستقبال عامرةً بالكتب، إذِ المعروف عن رجال البوليس أنهم أقلُّ الناس شغفًا بالاطلاع والقراءة، وفطن (فرساك) إلى دهشةِ أسيره؛ فقال:

– على المرء أن يطلب العلمَ ولو كان في أرذل العمر. إنني مولعٌ بالأدب الإغريقي القديم.

ألم تسمع من قبل عن شاعرٍ يدعَى (هوميروس)؟ لقد سألت

عنه موظفًا في إحدى الشركات فأكّد لي أنه لا بدّ أن يكون من زعماء العصابات في (شيكاغو).

وعلّق (فرساك) قبعته على الشماعة، وتناول زجاجةً من فوق المائدة وقال:

– هل لك في قدح من العصير؟

– شكرًا لك.

وصبّ (فرساك) العصير في كأس صغيرة، وقدمها إلى (لوبين) بينما أشعل سيجارة وأخذ يدخن في هدوء.

ثم قال فجأةً في اقتضاب:

– إنك مجنون يا (لوبين)!

فهزَّ (لوبين) كتفيه، وقال:

– ألسنا كلنا مجانين؟

– لقد أردت أن أقولَ إنك أكبر المجانين! لقد تحدثت إليك مرة وأنذرتك بما سيكون ولا شك أنك تعرف الآن ما يقضي به عليّ الواجب.

فصاح (لوبين) في صوتٍ غاضب:

– إني أعرف. ومَن يقابل مساعدك (كيتري) لا بدّ أن يعرف. هيّا أعدّ الهراوة وجهّز آلات التعذيب.

فقال (فرساك) في صوتٍ هادئ:

– لقد عرفنا بالتجربة أن (الدرجة الثالثة) أصلح وسيلة لانتزاع الاعترافات من المجرمين، ولكنني لا أحبّ أن أستعملها مع جميع الناس بلا استثناء. لقد أتيتُ بك إلى بيتي لنتحدث في مسألة أخرى، ألم تقترب بعدُ مِن الرفيق الكبير؟

ألقى (فرساك) السؤال في صراحةٍ دون مواربة، فآثرَ (لوبين) أن يعمدَ في جوابه إلى نفس هذه الصراحة، فقال:

– إني أنتظرُ رسالة تليفونية تصلني بعد ساعة.. وستكون هذه الرسالة طريقي إلى الرفيق الكبير.

هزّ (فرساك) رأسه، وجعل يتفرَّس برهةً في وجه (لوبين)، ثم قال:

– لن أسألك كيف بلغت في أبحاثك هذه المرحلة.. ولن أسالك عن اسْم الشخص الذي سيأتيك بهذه الرسالة؛ إني أعرف أنك داهيةٌ أريب.

ساد الصمتُ برهة، ثم مدَّ (فرساك) يدَه في جيبه، وأخرج مسدسَه وهو يقول:

– إنّ للمسدسات نفعًا عظيمًا في مثل هذه المعارك، فلو لم يصبْكَ هذا الجرح الذي في كتفك لما استحال عليك أن تتخلص من (كيتري) و(بوناشي).

ولوَّح بمسدسه، وهو يقول:

ولو كان هذا المسدس في يدك الآن لعرفتَ كيف تتخلص مني.

ثمَّ وضع المسدسَ على المائدة في غير اكتراث.

كان المسدسُ على قيدِ ياردتين أو ثلاث من قبضة (لوبين)، فلو أنه شاءَ لما تعذَّر عليه أن يختطفه، ولكنه بدلًا من ذلك تناولَ كأسه ورشفَ منه جرعةً، وهو يقول:

– (فرساك).. أتريد أن تلعبَ معي لعبة القط والفار!؟

استرسل (فرساك) يقول، كأنما لم يسمع هذه الجملة:

– لو أنك اختطفتَ هذا المسدس الآن؛ لأوقعتني في مأزقٍ حرج لا أدري كيف الخلاصُ منه، لا سيّما بعد أن أتيتُ بك إلى بيتي، وأمرت (كيتري) بالانصراف؛ فإنّ اللوائح تحرّم على رجال البوليس أن يذهبوا بالمتهمين إلى دورهم.

وفضلًا عن هذا فقد كان ينبغي أن آمُرَ (كيتري) بالبقاء لينضمّ

إليّ إذا خطر لك أنْ تتخلص مني.. فإذا حدث الآن أنك هربت فلن يصفحَ عني رؤسائي، ولن أستمرّ في منصبي يومًا واحدًا.. ألست معي في ذلك يا (لوبين)؟

لبث (لوبين) مكانه صامتًا لا يتكلم وهو يدخّن سيجارته.

ونهض (فرساك) واقفًا، ومشى إلى ركن الغرفة، وفتح دولابًا صغيرًا قائمًا هناك ليأتي بصندوق السجائر.

كان المسدسُ لا يزال على المنضدة في متناول يدِ (أرسين لوبين)، وكان (فرساك) موليًا ظهره نحوه لا يلتفت إليه.. فلو أن (لوبين) مدَّ يدَه وأخذ المسدس لما رآه (فرساك)، ولو رآه لاستحالَ عليه أن يمنعه.

رجع (فرساك) إلى مقعده، وكان المسدسُ لا يزال في موضعه على المنضدة، فقال يخاطب (لوبين):

- حقًّا.. إنك رجلٌ شريف.

تكلم (لوبين) للمرة الأولى، فقال:

- لنفرض أنك اقتنصتَ الرفيق الكبير، فهل لذلك فائدة؟ ليس في نيويورك مَن رآه أو عرفه، فكيف تثبت ضدَّه التهمة!؟ مِن أين لك الشهود الذين يقسمون بأنّ هذا هو الرفيق الكبير؟

فقال (فرساك) في صوتٍ ذي نبرة كأنها حدُّ السيف:

– أنا لستُ في حاجة إلى الشهود.. إذا جاءني رجلٌ مثلك وقدّم إليّ شخصًا، وقال:

ــ (هذا هو الرفيق الكبير)؛ فقد كفاني هذا برهانًا قاطعًا.. إني أؤمن بكلّ كلمةٍ ينطبق بها رجل مثلك.. وإذا ما وقع الرفيقُ الكبير في يدي عرفتُ كيف أنتزع منه اعترافًا كاملًا.. إنّ (الدرجة الثالثة) لم تخلق عبثًا.

أطفأ (لوبين) سيجارته في المنفضة، وقد سرتْ في عروقه دماءٌ جديدة.. وخُيّل إليه– على الرغم من قوّته المنهوكة– أنه أصبح أهلًا للقتال.. ودوَّت في أذنيه طبولُ الحرب، وذهب عنه هذا الضعفُ الذي كان يشعرُ به، حتى لقد خُيل إليه أنّ الدماء التي نزفت من جرحه جدَّدتْ نشاطَه ولم تُنهكه.

كان يشعرُ في هذه اللحظة بأنه ليس أهلًا لمقاتلة الرفيق الكبير فحسب، وإنما لمقاتلة عشراتٍ من أمثاله.

نهض واقفًا، وتناول المسدسَ فدَسَّه في جيبه، وقال مخاطبًا (فرساك):

– شكرًا لك.. سأعود إليك في الساعة العاشرة صباحًا مع الرفيق الكبير أو بدونه..!

فقال (فرساك):

– إلى اللقاء إذًا.. وأرجو لك التوفيق.

وبعد دقائق كان (أرسين لوبين) يغادر البيت، و(فرساك) يوصد البابَ خلفه.

لم يكدْ (لوبين) يدقّ الجرس حتى فتحت كوةٌ صغيرة في الباب، ظهر خلفها (كريس بلليني) فعرف زائرَه على الفور، واستقبله في ترحابٍ ملموس:

– ادخل يا مسيو (لوبين).. إني سعيدٌ بأن أراك مرة أخرى.

ومشى أمامه صوبَ القاعة، فقال له (لوبين):

– هل لديكَ أحدٌ؟

فهزَّ (كريس) رأسه، وقال:

– إنّ الشيء الذي يحيرني هو بقاؤك حيًّا حتى اليوم.

كان (كريس) وهو يتكلم يتظاهرُ بعدم الاهتمام والمرح. ولكن لم يخفَ على (لوبين) أنّ نبرات صوته تنمُّ على قلقه وانزعاجه، فقال له:

– كنْ مطمئنًّا.. إن هذه الإصابة لن تقتلني؛ قال الطبيب إني قد أصابُ بحمَّى خفيفة.. وهذا هو الشرُّ الوحيد الذي أنزلته بي هذه

الرصاصة.

وفي هذه اللحظة، دقَّ التليفون فانبعث (لوبين) واقفًا، وهو يقول:

- أظنّ أن هذا النداء لي..

تناول السماعةَ، ووضعها على أذنه؛ فسمع صوتًا يقول:

- هالو.. أهذه أنت يا (مابيل)؟

فقال (لوبين) في حنق:

- لا.. إنني لست (مابيل). وإني أرجو إذا عثرت عليها أن تعمد خنجرًا في صدرك!

وردَّ السماعة إلى مكانها في الوقت الذي كان فيه مستر (بانج) يسبُّ ويلعن عند الطرف الآخر مِن السلك.

رجع (لوبين) إلى مقعده في خطواتٍ بطيئة متراخية تدلُّ على الإعياء إذْ كان مفعولُ الحمى قد بدأ يتحرك، فضلًا عن الصدمة العصبية التي أصابته حين خاب رجاؤه في الحديث التليفوني، وبعد عشر دقائق دقّ الجرس مرةً ثانية فنهض واقفًا، وقد تجدّد نشاطه، ولما تناول السماعة سمع صوتًا نسائيًّا يقول:

- إنني (فاي).

ووثب قلب (لوبين) في صدره، واشتدت قبضتُه على السماعة، وألصقها بأذنه بشدة كأنما يخشي أن تفلتَ منه الكلمات.

قال (لوبين) يسألها:

– ما وراءك مِن الأنباء؟

– لقد بحثت عنه طويلًا فلم أهتدِ إليه بعد، ولكني تركتُ له أكثر من رسالة، وأغلب ظني أني سأراه الليلة، ولو لبثت ساهرةً حتى الصباح.

– إذًا سأظلّ في انتظارك هنا.

فقالت الفتاةُ في رفق:

– يحسنُ بك أن تنشد شيئًا من الراحة.

كان صوتها موسيقيًّا عذبًا فيّاضًا بالحنان والرحمة.

وأجابها (لوبين) بقوله:

– لن تطيب لي الراحة إلا إذا اهتديتُ إليه.

ولما رجع إلى مقعده، قال له (كريس):

– إنك بادي الإعياء، فلمَ لا تنام قليلًا!؟ إن لدي فراشًا في الطابق الأعلى.

– ومَن يلبي التليفون إذا استدعاني؟

– إن نومي خفيف؛ فكُنْ مطمئنًّا.

تردّد (لوبين) قليلًا، ولكنه كان يشعر بمسيسِ الحاجة إلى الراحة. وفضلًا عن هذا لم يكن في وسعه أن يعمل شيئًا إلا إذا بلغته رسالةُ (فاي ادواردس)، فلن يفيده شيءٌ بقاؤه مستيقظًا.

استيقظ (لوبين) في الصباح، والشمس تغمر الأرض، وبلليني واقفٌ عند رأسه يناديه.

فلما فتح عينيه قال له الإيطالي:

– إنك مطلوبٌ على التليفون.

فنظر (لوبين) في ساعته، فوجد أنها تشير إلى الثامنة صباحًا، فنهض مسرعًا ونزل إلى الطابق الأرضي، وهو يحسّ أنه استردّ نشاطه وقوته.

ولما وضع السماعة على أذنه، سمع الصوت الموسيقي المحبوب يقول:

– لقد سرَّني أنك نمت واسترحت.

قال (لوبين) مجيبًا:

– لقد أفادني النوم قوةً ونشاطًا، وفي وسعي الآن أن أقاتل ثورًا، فما

لديك من الأنباء يا (فاي)؟

– هل يمكنك أن تذهب في الساعة التاسعة إلى بنك (فاندريك)؟ إني اعتقد أنك ستجدُ هناك مَن تبحث عنه.

فوثب قلبُ (لوبين) فرحًا، ولبث صامتًا برهة خاطفة، ثم قال:

– سأكون هناك.

وسأوافيك في الموعد.. فإلى اللقاء.

جلس (لوبين) إلى مائدة الفطور فتناول طعامه في شهية، وشرب قدحًا كبيرًا من القهوة، ثم طلب رقمًا معينًا، هو رقم ذلك السائق الذي أركبه سيارته يوم مصرع (بابيلوس)، وقال يخاطب السائق تليفونيًّا:

– أهذا أنت يا (باستيان)؟ ألم تقلْ إنك على استعداد لأن تخدمني إذا احتجتُ إليك؟

فصاح السائقُ في ابتهاج قائلًا:

– إني لأجلك مستعدٌّ لأن أقدم على أي شيء.. لن أتردَّدَ حتى ولو سألتني أن أسرقَ لك البنك الدولي.

فابتسم (لوبين) وقال:

– وسأنقدك أجرًا طيبًا، فهل لك في مقابلتي بعد ربع ساعة عند

ملتقى الشارع رقم ٤٤ بشارع (لكسنجتون)؟

وكانت السيارة في انتظاره في المكان المحدد، فلما رآه السائق مقبلًا هتَفَ به:

– أسرع بالصعود قبل أن يفطن أحدٌ إلى هذه الأربطة والضمادات.

صعد (لوبين) إلى السيارة، وهو يقول للسائق:

– اذهب بي إلى بنك (فاندريك)؟

ولما بلغت السيارة باب المصرف قال (لوبين):

– قفْ بنا في أقرب مكان من المدخل، إني لن أنزلَ الآن من السيارة، ولكن إذا رأيتني أغادرها فلا تتحرك من مكانك، ولا توقف المحرك، وكنْ مستعدًّا للفرار فورَ رجوعي. واعلمْ أني سأعود ومعي شخصٌ آخر سأذكر لك اسْمه فيما بعد.

فهزَّ السائق رأسَه علامة الموافقة.

أشعل (لوبين) سيجارة، وأخذ يدخّن وهو غارق في خواطره وأفكاره. كان باب البنك لا يزال مغلقًا إذْ لم يحنْ بعدُ موعد فتحه، ولكن عينيه كانتا ما بين لحظة وأخرى تستقرّان على الباب في قلق ولهفة، وهو يسأل نفسَه عن السر الذي سيتكشف عنه هذا الانتظار.

أتراه سيظفر حقًّا بالرفيق الكبير؟ أم سيضطرُّ إلى البر بوعده فيعود إلى (فرساك) ويقدّم إليه يديه؛ ليضع فيهما القيدَ الحديدي؟ أتراه سيتمكن من إنجاز مهمته وأداء واجبه نحو العدالة بالقبض على الرفيق الكبير الذي غمر المدينة بالجثث والدماء، أم سينكص على عقبَيْه مخذولًا مقهورًا؟

بدأت الساعة ترسل دقاتها التسع، ونظر (لوبين) في ساعته كأنما لا يصدّق ما تسمع أذناه.

تحرك حارسُ الباب، وأخذ يفتحه ليستقبل العملاء.

توترتْ أعصابُ (لوبين)، وجرت الدماءُ ساخنة في عروقه حين شعرَ باقتراب اللحظة الحاسمة. وأخذ يقولُ في نفسه:

ــ ليت شعري مَن هو الرفيق الكبير؟

نعم.. مَن هو الرفيق الكبير؟

مَن هو ذلك الرجل الذي جمع من الدماء عشرين مليونًا من الدولارات؟

وما الذي يدعوه إلى المجيء للبنك؟ أتراه قد أودعه هذه الملايين؟

جعل (لوبين) ينظرُ في ساعته، ويتفحَّص وجوه العشرات من

الناس الذين هُرِعُوا إلى البنك عندما فُتِحت أبوابه.

كانت هذه اللحظة حاسمةً في تاريخ حياته.. ومجده.. وانتصاراته.. وماضيه. كلها معلقة بما ستتكشف عنه هذه اللحظة.

وعلى حين فجأة، رأى صديقه (فالكروس) مقبلًا، فنسي كلَّ شيء عند هذا، ونزل من السيارة، ودنا منه، ووضع يدَه على كتفه في رفق، فدار هذا على عقبيه، ولما رأى (لوبين) أمامَه اتسعت عيناه دهشة، وهتف قائلًا:

– أهذا أنت يا (لوبين)؟ ما كنت أتوقع أن تستيقظَ مبكرا في مثل هذه الساعة؟

فابتسم (لوبين) وقال:

– بل إني لم أكد أذوق النوم! ولكن أين كنت؟

– ألم تفطن إلى رسالتي؟ لقد تركتُ لك رسالة على رخامة الموقد.

فهزّ (لوبين) رأسه، وقال:

– كانت هناك أسبابٌ حالت دوني والبحثِ عن رسالتك، ولكن تعال معي إلى سيارتي، فإني لا أريد أن يراني أحدٌ في هذا المكان.

وأخذ بذراع (فالكروس) وقاده إلى السيارة.

وطلب إليه (لوبين) الانتظارَ، وعدم الانطلاق بالسيارة إذْ لم يحن أوانُ ذلك بعد.

عاد (لوبين) يسأل (فالكروس) بقوله:

- ولكن أين كنت؟

- لقد سافرت إلى بتسبرج بالطائرة لعمل فجائي اسْتدعى ذلك، وتناولت العشاء مع صديقٍ لي ثم عدت الآن بالطائرة.

- ألم تذهب إلى الفندق بعد؟

- بلى.. لم أذهب.

- هذا من حسن حظّك؛ فإن في انتظارك هناك شرطيًّا يريد أن يسألك عن السبب الذي جعلك تؤوي تحت سقفك رجلًا خطرًا مثلي.

فبدت أماراتُ الدهشة على وجه (فالكروس) وقال:

- يا إلهي! ولكن كيف عرفوا أنك...

- لا أدري.. وكلُّ ما هنالك أن الرفيق الكبير اتصل بهم تليفونيًّا وأرشدهم إلى مخبئي، وأوصاهم بي خيرًا قائلًا:

ــ (إنه ضاق بي ذرعًا!...) ويلوح لي أنّ القنوط أدركه إذ رآني أفلت من عصابته مرةً بعد مرة، فأراد أن يغري بي البوليس علَّه يكون

أسعد حظًّا.. ولكن المهم الآن هو إخراجُك أنت مِن هذه الورطة.. إذا سئلت عني فقل إنك لا تعرف شيئًا، وأنّ من المحتمل أني حضرت إلى السكن بقصد السطو.

– ولكن ماذا يكون مِن أمرك أنت؟ ألا تنوي أن تهرب؟

فارتسمت ابتسامةٌ خفيفة على شفتي (لوبين) وقال:

– بل سأنتظر حتى أظفر بالمليون دولار التي وعدتني بها.

ثم أنشأ يحدّثه بما وقع في الليلة الماضية، واختتم حديثَه بقوله: وكان المفتش (فرساك) قد أطلق سراحي على شرطِ أن آتيه بالرفيق الكبير. وقد جئت إلى هذا البنك لأنّ (فاي ادواردس) سترشدني إلى الرفيق الكبير.

فصاح (فالكروس) قائلًا:

– (فاي ادواردس) سترشدك إلى الرفيق الكبير! إذًا فهي ستتخلى عنه بعد أن انتشلها من وهْدَة الفقر والفاقة كما ذكرت لك!

ساد الصمتُ برهة، ثم قال (فالكروس):

– ما أعجب النساء! هذه امرأةٌ تتسلط على المدينة بأسرها، وتنشر فيها الرعب والفزع، ويأتمر بأمرها عشراتٌ من الرجال يغرقون المدينةَ

في الحديد والنار تلبيةً لإشارة من يدها.. ومع ذلك تتخلى عن هذا المجد؟ لماذا؟ لأنها أحبت رجلًا مثلك.. مغامرًا جسورًا. لا اسم له ولا وطن! حقًّا.. إن المرأة لغزٌ غامض.

وفي تلك اللحظة مرَّ باعة الصحف ينادون ويصرخون.. فابْتاعَ (فالكروس) إحداها، وما كاد ينظر فيها حتى هتف قائلًا:

– انظر.. ها هو ذا الشخصُ السادس والأخير قد قُتل!

فقد نشرت الصحفُ بالخط العريض أنّ أحدَ زعماء العصابات المدعو (كيرلي ايبولينو) المقيم في مدينة بتسبرج قد قُتل في الليلة الماضية بيدِ شخص مجهول.

واسترسل (فالكروس) قائلًا:

– الآن.. انتهت مهمتك العظيمة، وصار المليون دولار حقًّا لك. لقد استدعيتك إلى هذه البلاد لتنتقم لمصرع ابني بأن تقتلَ ستةً من زعماء العصابات. وقد قتلت خمسةً منهم، وها هو ذا السادس قد قتل أيضًا، فليس ثمة ما يدعوك إلى البقاء. إنّ في بقائك خطرًا على نفسك، وأنت تعلم أن البوليس يجدُّ في أثرك. فعُدْ إلى بلادك.. بادر إلى الفرار.. وخذْ معك المليون دولار.

فقال (لوبين) معترضًا:

– والرفيق الكبير؟

– ولكنك تعلمُ أني لم أسألك أن تقتل الرفيق الكبير! إنه شخص لا خطر منه، إنه ذهنٌ جبار ليس إلا.. يدير ويحرّك ويضع الخطط.. ولكن بمفرده لا يستطيع أن يعمل شيئًا.. إنه كالطير إذا قُص جناحاه عجزَ عن الطيران، وقد قصَّ الجناحان بمصرع زعماء العصابة الستة، فوجود الرفيق الكبير وموته سِيَان؛ إنك أنت الذي ضمَمْته إلى القائمة على غير رأيي فلن أطالبك بقتله.. سآتيك الآن بالمليون دولار، فخذها واهْرب، وإلا وقعتَ في أيدي البوليس.

نزل (فالكروس) من السيارة، ومشى متجهًا إلى درج البنك.

أخذ (لوبين) يتابعه بعينيه، وقد ارتسمت فيهما نظرةٌ عجيبة.. نظرةٌ تدلّ على أن فكرةً غريبة قد وثبَتْ إلى ذهنه.

وفي هذه اللحظة، وقفت سيارة عند الإفريز، وخرجت منها (فاي ادواردس).

لم يكد (لوبين) يراها حتى فتح بابَ سيارته وقفزَ إلى الأرض.

وإذْ ذاك رأى أنّ الفتاة لم تكن تنظر إليه، وإنما كانت مرسلة بصرها إلى(فالكروس)

ولم يكن هناك ما يدعوها إلى الكلام، ولم يكن هناك ما يدعوه إلى

توجيه الأسئلة. كانت هذه النظرةُ أفصحَ من كلّ سؤال وجواب..

(فالكروس) هو الرفيق الكبير!

ولم تكن الفتاةُ قد فطنت بعد إلى وجود (لوبين).. كانت لا تزال تنظر إلى (فالكروس) هذه النظرة الناطقة.. الفصيحة البليغة. هذه النظرة التي جمعت كلَّ ما يبغيه (لوبين).

وارتفع الستارُ وانكشف الماضي كلُّه.

تدفَّقت إلى ذهن (لوبين) الحقائقُ القديمة والأسماء والكلمات والحوادث، وأخذت تدوِّي في أذنيه وتروح وتجيء حتى انتظمت سلسلةٌ منسقة متصلةُ الحلقات، ليس لها إلا معنى واحد هو أنّ (فالكروس) هو الرفيق الكبير.

الرفيقُ الكبير هو الذي وشي به إلى البوليس وأنباهم بمخبئه.. ومَن يعرف هذا المخبأ غير (فالكروس)!؟

لقد ذكرت له (فاي ادواردس) أنّ (كيري ايبولينو) يقطن مدينة بتسبرج.. وها هو ذا (فالكروس) يذهب إلى بتسبرج بالطائرة ويعودُ منها.. وها هي ذي الصحف تعلنُ إلى الناس مصرع (ايبولينو)!

إذًا فقد ذهب (فالكروس) إلى بتسبرج ليقتل (ايبولينو) الذي يقطن مدينة بتسبرج؛ لأنه كان الوحيد الذي لا يزال حيًّا بين زعماء العصابة،

فإذا ماتَ آلتِ العشرون مليونًا كلُّها إلى (فالكروس) وحده.

وهذا هو السر في أنّ الرفيق الكبير أوصى (فاي) بأن تنقذ (لوبين)، وتحميه كلما وقع بين أيدي العصابة معللًا ذلك بأنه سيتمكّن في أحد الأيام من ضمّه إليه، أمّا التعليل الحقيقي فهو أنه أرادَ أن يبقي على (لوبين) حتى يتم له الإجهازُ على شركائه في الميراث واحدًا بعد الآخر.

والآن.. وقد تم هذا الإجهاز، ولم يبقَ إلا (ايبولينو) فقد وشي به إلى البوليس وتولى هو بنفسه التخلص من غريمه (ايبولينو).

وحكاية الابن الذي اختطفته العصابة وقتلته، ورغبةُ (فالكروس) في الانتقام لولده! إنها- إذًا- حكايةٌ ملفَّقة، لا أصل لها، ابتكرها (فالكروس) ليتَّخذ منها حجةً في الاستعانة بـ (لوبين).

وما فكر (فالكروس) في التخلص من (لوبين) والوشاية به عند البوليس لولا أن أصرَّ هذا على اكتشاف سرّ الرفيق الكبير والقضاءِ عليه مع مَن قضى عليهم مِن زعماء العصابة.

وهكذا انكشفَ الحجاب، وتدفَّقت الحقائق الدامغة إلى ذهن (لوبين).

ومنذ لحظات، وثبتْ هذه الفكرة إلى دماغ (لوبين)، ولكنه طردها ونفاها، ولم يشأ أنْ يصدّق أنّ (فالكروس) هو بعينه الرفيق الكبير.

أمَّا الآن.. حين رأى تلك النظرة التي أرسلتها (فاي ادواردس) إلى (فالكروس) فلم يعدْ هناك مجالٌ للشك.

كانت (فاي) لا تزال مسمَّرَةً في مكانها، وهي تنظر إلى (فالكروس) الذي كان قد شرع يرتقي درجَ البنك.

وفجأة، التفت (فالكروس) خلفه فرأى الفتاة لأول مرة، ورأى النظرةَ التي في عينيها، ثم رأى (لوبين) ورأى أيضًا النظرةَ التي في عينيه!

وعرفَ في الحال أنَّ أمرَه قد انكشف.

تبدَّدتْ مِن عينيه أماراتُ الرقة وطيبة القلب، وأرسل وميضًا مخيفًا كالشرر، وانقلبت سحنتُه، وتقلصت عضلات وجهه، حتى لقد خُيّل إلى (لوبين) أنه يرى هرةً وديعة تنقلب نمرًا مفترسًا.

وعلى حين بغتة، امتدت يدُ (فالكروس) إلى جيبه الخلفي.

وكذلك فعل (لوبين)، ولكنه ما لبث أن أدركَ غلطته. كانت يدُه اليمنى هي التي تحركت بحكم الغريزة.

ولكنه نسي الجرحَ الذي في ذراعه، والذي يجعل استعمالَه هذه اليد متعذرًا، فلما شعرَ بالألم يمزّق أوصاله ردَّ يدَه عن الحركة، ودفع يده اليسرى إلى جيبه.

وفي هذه اللحظة، كان (فالكروس) قد أخرج مسدسَه، وأرسل منه طلقًا ناريًّا مرَّ إلى جوار أذن (لوبين).

ودوى الطلق الثاني، ولكن (لوبين) لم يرَ اتجاهه، ولم يسمع منه إلا دوِيَّه.

أخرج (لوبين) مسدسَه، وأطلق رصاصة أصابت (فالكروس)، فأفلتت أصابعه المسدس، وترنح وسقط على الأرض، جرى إليه (لوبين) فأخذَ بتلابيبِهِ وجرَّهُ إلى السيارة.

وإذْ ذاك رأى (فاي ادواردس).

كانت واقفةً إلى جوار السيارة مستندةً إليها بإحدى يديها، أمّا يدها الأخرى فكانت موضوعةً فوق صدرها، وقد انبثقت خيوطٌ من الدماء من بين فتحات أصابعها.

وعرف (لوبين)- على الفور- أين استقرَّت رصاصة (فالكروس) الثانية!

لم يشعر بالحزن فحسب، وإنما خُيّل إليه أنه يختنق، وأنّ أنفاسَه احتبست، وأنّ قلبَه كفَّ عن الخفقان.

وفي اللحظة التالية، فتح بابَ السيارة، وألقى بـ (فالكروس) على المقعد كما تُلقَى الغرارة، ثم رجع إلى (فاي) فاحتواها بين ذراعيه في

رفق، وحملها إلى السيارة.

وكانت خفيفةً كأنها طفلة ناعسة.. ولم يشعرْ حتى بالألم الذي كان يمزقُ كتفه ووضعها على المقعد في رفق وحذر، كأنها تمثالٌ من الزجاج يُخشى عليه أن ينكسر.

انطلقت السيارةُ مسرعةً دون أن يجرؤ أحدٌ من الجمهور المحتشد على التعرّض لها.

ولكنّ رجـال البوليس انطلقوا في أثرها بالموتوسيكلات والسيارات، و(باستيان) ينهب الأرض، ويطوي الطرقات كأنه في سباق إلى الموت لا يعبأ بإشارات المرور، ولا يقيم وزنًا لأوامر الكونستبلات.. يدور وينعطفُ ويتلوّى ويعرج حتى نجح أخيرًا في تضليل مطارديه والإفلاتِ منهم.

وشعر (لوبين) بلمسةٍ خفيفة على ذراعه، فنظر إلى الفتاة. كانت قد نزعت قبّعتَها فتهدّل شعرها على جبينها في خصلاتٍ من الذهب. وكانت في عينيها الجميلتين ظلال خفيفة، ولكنَّ وجهَها لبث هادئًا ساكنًا، والشباب المتفجّر منطبعٌ على صفحته كأنما لم يكنْ يفترسها الموت! أمّا انفراجُ شفتيها فيمكنُ أنْ يوصف بأنه شبحُ ابتسامة.

وتكلمت قائلة:

- لا تحزن. لن أرافقكَ إلى النهاية!

فقال (لوبين) في خشونة:

- هراء.. إصابتك تافهة! وستشفين..

لكنه كان يعلم أنه كاذب، وكانت هي أيضًا تعرفُ ذلك.

هزَّت رأسَها، فتراقصت خصلاتها الذهبية وقالت:

- ليس هناك ما يؤلم، إني لا أتعذّب.

وكانت مستندةً إلى صدره في استسلام كأنها طفلةٌ متعَبة.

وأرسلت مِن صدرها تنهيدةً خفيفة قالت:

- ما كنت أظنُّ أني سأموت الآن.

وعقد الحزنُ لسانَه فلم يتكلم.

ثم قالت في هدوء:

- قبّلني ثانية يا (لوبين).

فقبَّلها.

وجعلت الفتاةُ تتأمّل وجهَه، كأنما تريد ألا تنسى خطًّا واحدًا من خطوط ملامحه.

كانت تبتسم. وكان في عينيها ومضات.

ورآها تستجمع أنفاسَها لتتكلم، ثم قالت في صوتٍ خافت:

- وداعًا.

ثم أغمضتْ عينيها، وهي لا تزال تنظر إليه.

وضع (لوبين) رأسَها في رفق على وسادةِ السيارة. ولم يحوّل بصرَه عنها، ولكنه لم يكنْ يرى شيئًا؛ لأنّ العبرات حجبت عنه وجهَها. وجْه هذه الفتاة التي عاشت لأجله، وماتت لأجله!

ظل (لوبين) ساكنًا جامدًا كأنما أدركه الموتُ هو أيضًا. وخُيّل إليه أنه يسمعُ إلى جواره حركةً وصوتًا. وكان هذا هو (فالكروس)، وقد بدأ يتحرك ويتكلم.

قال (فالكروس) في صوتٍ متقطع ينمُّ عن الألم والرعب:

- إني لا أريد أنْ أموت.. أنقذني.. أنقذني.. خذْ كلَّ أموالي وأعدْ إليّ الحياة.. اذهبْ بي إلى الطبيب؛ إنّ لدي عشرين مليونًا فخذْهَا كلها.. لا أبتغي إلا الحياة.. أنقذني.

فصاح (لوبين) في صوتٍ غاضب:

- اصمت.

فعادَ (فالكروس) يقول متوسّلًا:

- خذْ ملاييني كلَّها. لست أريدُ إلا أن أعيش!

فضربَه (لوبين) بيدِهِ على فكِّه، وهو يقول في وحشية:

-ويحكَ أيها المجنون.. أتظنّ أنّ ملايينك يمكن أنْ تعيد إليكَ ما فقدت..!

فانكمش المحتضرُ خوفًا ولاذَ بالصمت. فقد كان صوتُ (لوبين) أشدَّ رعبًا من الموت.

وحين وقفت السيارة أمام بيت المفتش (فرساك)، نزل منها (لوبين) وتقدّم إلى البيت فألفى (فرساك) عند الباب.

وأخرج (لوبين) المسدسَ، وقدَّمه إلى (فرساك) قائلًا:

- لقد برَرْتُ بوعدي، وهاك مسدسُك.

فدَسَّ المفتش المسدسَ في جيبه، وقال:

- ألم تعثرْ على الرفيق الكبير؟

- إنه في السيارة.

فأشرق وجهُ (فرساك)، وهمس قائلًا:

- شكرًا لك.

وأسرع إلى السيارة، وفتح بابها، فتدحرجت جثةُ (فالكروس) عند

قدميه.

وهنا رأى (فرساك) شيئًا آخر.. رأى جثةَ فتاة على المقعد، فقطَّبَ جبينه وجمُدَ في مكانه، ثم قال:

- مَن هذه؟

ولكنه لم يسمع جوابًا؛ لأنّ (لوبين) كان قد اختفى!

الخاتمة

كانت نيويورك بأسرها تتحدَّث عن (أرسين لوبين) . . أمّا في إنجلترا، فكان اطفتش (تيل) جالسًا بين نفَرٍ من مساعديه، وهو يقول:

– لقد رجعَ إلينا (لوبين).

ثم يتنهَّدُ ويقول:

– نعم.. لقد رجع.

فيتنهَّد معه جميعُ مساعديه، ويقولون:

– نعم.. لقد رجع.

فقد كانوا يعرفون معنى هذه العودة..

أمَّا (لوبين) نفسُه، فكان جالسًا في حديقة داره، وسيجارتُه بين شفتيه، و(باتريشيا هولم) إلى جواره، وهي تقول:

– ولكنك لم تحدثني بشيء مما وقع لك في نيويورك؟

ولم يسمعْ (لوبين) سؤالها؛ لأنه كان في هذه اللحظة يعيشُ في مكان يبعد عن لندن حوالي ٤٨٠٠ كيلو مترًا، ولم يكن يسمع إلا صوتًا واحدًا.. صوتًا يعلو على ضجَّة المركبات ودوي السيارات..

وكان الصوتُ موسيقيًّا عذبًا يردِّدُ في همسات ليِّنة:

وداعًا.. وداعًا..

تمَّتْ